



ثلاثة مشاهد للعالم

ثلاثة مشاهد للعالم
ثلاثة مشاهد للعالم

أحمد أبو خنيجر

ثلاثة مشاهد للعَلَم

أحمد أبو خنيجر

وزارة الثقافة





الهيئة العامة لقصور الثقافة

• ثلاثة مشاهد للعلم

• أحمد أبو خنيجر

• تصميم الغلاف:

د. خالد سرور

هذه الطبعة

الهيئة العامة لقصور الثقافة

• رقم الإيداع: ١٦٠٢٢/ ٢٠١٤

• الترقيم الدولي: 978-977-718-773-2

• الطباعة والتنفيذ:

شركة الأمل للطباعة والنشر

ت: 23904096

المتابعة والتنفيذ

سعيد شحاتة

ثلاثة مشاهد للعَلَم

إليهم قطعًا؛

الثوار، أولئك الذين يستنهضون روح الأمم.

إلى الثوار بأسوان، فهم من ألهمني هذا الكتاب.

أصدقائي:

أسامة الرحيمي،

أيمن بكر،

جمال فاضل،

يوسف فاخوري.

وشكر عميق للمترجم القدير: طلعت الشايب.

"هتف بي: قف.
وكنت على العتبة؛ قال: أتدخل عليَّ بغير طهر، عد.
وأقام جدارًا من حجر وصمت"

1-

تحية الصباح

والله زمن ع (الحشود)

زاحفة بترعد رعود

حالفة تروح لن تعود

إلا بنصر الزمان.

من النشيد الوطني (١٩٦٠-١٩٧٩) بتصرف

- تحيا جمهورية مصر العربية.

صوت باهت وحماس مفقود، وجزء غير هيِّن من الروح ضائع، لامبالاة واضحة تضخها الحناجر على الرغم من طزاجة الصباح، لكنه يمر كصباح قديم مُرّ، لا يبشر بأي أمل. تطاولت الصباحات وتعددت، وبقيت الصارية بلا راية، فقط هي تدل على ما كان موجودًا في يوم من الأيام.

الحزن والضيق يطبقان على صدري مع بداية الصباح، وأنا استمع لتحية العلم التي يلقيها التلاميذ بلامبلاة واضحة، يرددها خلفهم زملاؤهم بتكاسل وإهمال وعدم إحساس بالقيمة والمعنى، فأي قيمة أو معنى لصارية بلا علم؛ تقوم الصارية بقلب حوش المدرسة شاهدة على ما جرى وعلى القيم التي تراجعت خلال سنوات طويلة حتى أصبح التخلى عنها واجبًا.

كانت الراية القديمة قد تهرّأت منذ زمن، و صارت مزقًا تتطاير أمام أبصارنا، من دون أن يحرك فينا ذلك أي عاطفة تجاه عَلَمنا الذي

تبدده الرياح يومًا بعد يوم، تتطاير المزق ومعها يتطاير إدراكنا لقيمة هذا الرمز وأهميته.

ذات صباح التقط واحد من المدرسين مزقة تطايرت من العلم المهيض وحطت بجواره، ونحن بطابور الصباح، رحت أتابعه وهو يقوم بنفضها وتطبيقها، كان مدرسًا للتاريخ، ثم مال بها منحنيًا نحو حذائه، لم أتمالك ردة فعلي واندفعت نحوه لأخطف القطعة من يده قبل أن تلامس حذاءه المتسخ، وأنا أصرخ: انت اتجننت؟

سكن كل شيء حتى همهمة التلاميذ الخفيضة، فها هي خناقة بين المدرسين سوف تنشب، وهي فرصة طيبة للتشفي على الأقل؛ كان الموقف صعبًا وقاسيًا، فالمدرس أحس بأنه أهين بدرجة ما، وأمام زملائه وطلاب المدرسة، فزعق مدافعًا عن نفسه وفعلته: فايدتها إيه؟ دي حتة قماش يا بني!

– قماش إيه! دي العَلَم. قال واحد من المدرسين. فأضفت بحماس: الرمز.. القيمة.

قهقه الواقفون وضرب بعضهم كفًّا بكف، وعلق البعض ساخرًا:

– آه.. الشاعر.

أي شخص يمتهن الكتابة الأدبية من أي نوع يصير شاعرًا بين

أوساط المتعلمين الذين لا يدركون في الأصل الفوارق بين أنواع الكتابة الأدبية المختلفة، ناهيك عن اطلاعهم على ما يكتبه زميلهم، فقط هو شاعر وله شطحاته، والتي لا يمكن أخذها على محمل الجدية وكفى، وقد يسأله أحدهم في مناسبة ما أن يقول قصيدة أو يكتب قصيدة من أجل المناسبة.

- ملعون أبو الشعر.

قلت وأنا أفرد مزقة العلم المهيضة بين يدي.

- على مهلك بس.. تقدر تقول لي إيه فايدة العلم أصلا في حياتنا؟

قال مدرس التاريخ، صفعني سؤاله الذي بدا منطقيًا. وعلى الرغم من ذلك، فإنني رحت أحاجج بكونه -العلم- قيمة ورمزًا لا يمكن النظر إليه كقطعة من قماش عديمة الفائدة، وكيف علينا -نحن تحديدًا- أن نربي ذلك الحس داخل النشء بوصفنا ضمن المؤسسة التربوية والتعليمية، والتي تقدم المثل والقدوة قبل العلوم، وأن خطورة ما جرى أمام التلاميذ، مسح الحذاء بقطعة العلم المتطايرة، هو ضرب في الصميم لقيمة ومكانة العلم؛ لا أدري لماذا شعرت بأني أقول كلامًا ليس في محله، ربما لانصراف المدرسين، أو للتعبير

الهازئ الذي اكتسى به وجه زميلي مدرس التاريخ، أعدت تطبيق قطعة العلم ووضعتها بجيبي.

كنت أشعر بطعنة داخلية يوميًا وأنا أستمع لتحية العلم الصباحية من حناجر الطلاب ودردشة المدرسين المعتادة. كان الطلاب في حقيقة الأمر يحييون الحائط، أو في أبسط تقدير الصارية الفارغة، والدالة على الفراغ الداخلي، أقصد العاطفي والارتباطي بما يمثله العلم، وكنت أرى أن عندهم الحق، فما جرى خلال سنوات طويلة من إهمال وتجاهل لقيمة العلم ورمزيته على المستويات كافة جدير بأن يضعنا في هذا الموضع، فقد تم استبدال صورة الرئيس وعائلته في المصالح كافة بتلك الرمزية الدالة على الوطن، كما لم يقدم الإعلام والدرما بجميع أشكالها ما يدعم هذه القيمة ويرفع من شأنها وغرسها داخل الوجدان الجمعي، كان كل شيء يتداعى، وبات العلم جزءًا من ديكور المشهد واللحظة، غير جالب لأي قيمة ولا باعث على الاحترام والتقدير؛ كنت أراه حزينًا مكسورًا منطويًا، كأنما الصقر المصري المجنح بداخله قد تحول لعقاب مصري يطوي جناحيه، وصار فوق قمته البعيدة منعزلا، ولا أقول متأملا، بل متألمًا مما يجري له ومعه.

كيف وصلنا لتلك الحالة؟

أيام متعاقبة مرت بعد تلك الواقعة، حتى باتت الصارية خالية تمامًا من العلم، وتراخى الطلاب في أداء النشيد الوطني، وتحية العلم أصبحت عادة، ولم يعد يهتم أحد بجلب راية أخرى، وحين طلبت وبعض زملائي من إدارة المدرسة أن تأتي بعَلَم جديد، قالوا: إن شاء الله. وبعد فترة كررنا نفس الطلب، فكرروا نفس الجواب، ولما طرحت أن آتي بواحد، قالوا: المواصفات ولجنة المشتروات وإذن إضافة. تبسمت فقال مدرس: فلوس المدرسة دي لحاجات أهم من العلم اللي داوش دماغك بيه. وعلى نفس الخط دخل مدرس آخر، قال: و بعدين تحية العلم دي مش إسلامية، غير شرعية.. التحية والعظمة لله سبحانه وتعالى.

لم أستغرب ما قاله زميلي الملتحي، فأنا أعرف توجهه، ولكن ها هو يوضح لي دون أن يقصد تلك الزيادات التي دخلت على تحية العلم، والتي أصبحت تتقدمها: الله أكبر والعزة لله. تقال ثلاث مرات يعقبها تحية العلم. وهو ما كنت أراه تزيدًا ليس في محله، وإن لم أرفضه.

صارية خالية من علم تشير للخواء الروحي وضعف الارتباط العاطفي بقيمة ورمزية الأمة المتمثلة في العَلم، كيف وصلنا لهذه

النقطة؟ حتى صارت المفردة نشازًا وبعيدة عن حياتنا اليومية، وكيف لم نهتم بتحسين الأداء وبث الحماس فيه ولم نحرك ساكنًا ونحن نرى منظومة القيم بأكملها قد أصابها التآكل و التبدل!

كل هذا كان يردني لمشهد قديم أتذكره بنوع من الحنين والتطرف، وأشعر بأنه ربما جرى لأناس غيرنا، أو في زمن تجاوز القرون، بينما في حقيقة الأمر لم تكن تفصلنا عنه أكثر من ثلاثين عامًا بقليل.

•••

صباح مشرق، وشمس تبدد نداوة الفجر الباردة لتهب لأجسادنا الدفء والحماس، فاليوم السبت، بداية عودتنا لبدء الدراسة التي توقفت بسبب الحرب، أيام طويلة ونحن نترقب النتائج، نتلقفها من بين أفواه الكبار والراديو، وندور بها نعلنها في شوارع القرية: عدّينا وعبرنا.. طائرات الميراج.. صواريخ سام ٦.. معركة الدبابات، لم نكن قلقين كما الكبار، فقط كنا معنيين باللعب وإذاعة الأخبار وحفظ أغاني المعركة التي يبثها الراديو طوال اليوم، والتهرب من طلبات

الكبار وتوترهم، وهو ما كان ينعكس على عنف العقاب الذي قد يطالنا إن قصرنا فيما يطلب منا، فهم لم ينسوا، ومرارة الهزيمة في ١٩٦٧م ما تزال عالقة في الروح، كل هذا تبدل مع انتهاء الحرب وإعلان النصر الحاسم على العدو الصهيوني، فقلّت طلبات الكبار وتحكماتهم، وأصبحوا أرقَّ جانبًا في معاملتهم لنا.

كانت الحرب هي موضوع ألعابنا، فرحنا نحلق في سماء حوش المدرسة مبتدعين وفق الحال: طائرات ودبابات وصواريخ ومدافع وبنادق وجنود بطبيعة الحال، نطارد جيش الأعداء الذليل وهو يتراجع منكسرًا، ولم نكن لنرحمه ونحن نطلق صيحة النصر: الله أكبر.

أولاد وبنات بحوش المدرسة، نختبئ بالفصول متحصنين بالأبواب والشبابيك، وأفواهنا تطلق أصوات الرصاص. في الحقيقة لم يرض واحد من الطلاب أن يمثل جيش الأعداء أو يقف في جانبهم، الجميع في جانب المنتصر، كنا نطارد في الحقيقة ما نتخيله جيش الأعداء، كنا ندرك بطريقة ما وجودهم، وعلينا دحرهم وعبور القناة للخلاص النهائي منهم، ولم ننتبه ونحن في غمرة مطارداتنا الحماسية لوصول المدرسين والناظر، فقط كنا رأينا عم بدري فراش

المدرسة حين فتح لنا الباب في بدايات الصباح وغرقنا في اللعب حتى انتبهنا على دقات جرس المدرسة الحادة.

جرينا نحو حقائبنا، والتي كانت عامرة بالكتب والكراسات والأقلام والألوان، نصف الرغيف لزوم الإفطار، تناولناها ورحنا لأماكننا المخصصة في الطابور، القصير في الأمام والطويل في الخلف، والذين يقومون بتحية العلم أخذوا أماكنهم على بعد خطوات من السارية المقامة بمنتصف الحوش: واحد يقف في المقدمة، ويصطف ثلاثة خلفه، يقودون النشيد الوطني، ثم يرفعون التحية بالحماس اللازم والمطلوب لبدء عام دراسي جديد. وكنت أقف مع من يحيون العلم.

بدأت الصفا والانتباه بحماس وفرحة وشوق ندكُّ الأرض، معلنين عن الجدية التي تمتلئ بها صدورنا، المدرسون وقد وقفوا حول جوانب الطابور، ملابسهم زاهية ومكوية بعناية، بينما الناظر عبد العال بزيه الأزهري، الجبة والقفطان الأسود، وفوق رأسه عمامة صغيرة ولطيفة تلتف بإحكام حول طربوش أحمر قصير، كان الناظر يتحرك مقتربًا من العلم، وهو يدور حول فصول المدرسة الستة، بدأت الإذاعة المدرسية بالقرآن الكريم، آيات قصار تبعها

حديث شريف، ثم حكمة تحث على العمل، كل هذا جرى إعداه من الذاكرة، ولما لم يكن واحد من الطلاب قد أعد كلمة الصباح، فتقدم مدرس اللغة العربية وافتتح الكلام بحمد الله وصلى وسلم على نبيه ثم راح لحديث النصر، وحين اختتم حديثه ضجت أكفنا بالتصفيق والحماس، فقاد على إثر ذلك الحماس المدرس الطابور ثم هتف بنا: النشيد الوطني.

هنا رفع الناظر يده فسكن كل متحرك، وكتم كل صوت، ولم يبق سوى الحماس هو الطاغي، سار بخطوات بطيئة نحو العلم، كنا نتابعه حتى حاذانا ونحن واقفين أمام العلم وتخطانا متقدمًا من الساري، وراح يفك عقدة الحبل الذي يشد العلم، لم نفهم ما الذي يريده، أو حتى نخمن فعله، لكننا تبعناه وهو يقوم بإنزال العلم، ثم يقوم بإخراجه من الحبل، ويفرده فوق ذراعيه، استدار مواجهًا الطابور وقال بصوته الجهير: عارفين إيه ده؟

في نَفَس واحد هتفنا: العَلَم يا أستاذ. هز رأسه موافقًا على إجابتنا وأخذ في التحرك مقتربًا من صفوف التلاميذ والعلم مفرود فوق ذراعيه، وتساءل للمرة الثانية: ليه ألوانه كدا: أحمر وأبيض وأسود؟ بالطبع لم نكن نمتلك أية إجابة. فطوال الوقت نرى العلم

بألوانه الثلاثة، والصقر الذهبي المجنح بداخل الأبيض، لكننا لم نتساءل أبدًا عن معنى تلك الألوان ولا الصقر الذي يفرد جناحيه موليًا وجهه جهة اليمين، فقط هو ككل الحقائق الثابتة، والتى لا تحتاج لسؤال، لكن للمرة الأولى شعرنا برغبتنا الجارفة في المعرفة، كان الناظر يمر حاملا العلم على ذراعيه بين صفوف الطلبة ويأمرهم بأن يلمسوا العلم، وفي نفس الوقت يحاول حثهم على تخمين الإجابة، ولما عاد لم ينس أن يمر بنا وهو ما يزال يطرح تساؤله، ولم تكن لدينا إجابة.

وقف ناظر المدرسة تحت صارية العلم وراح يكلمنا عن العلم وتاريخه، وفسر لنا سر اختيار هذه الألوان الثلاثة بالتحديد دون غيرها، ثم أشار للصقر المصري المجنح، وقال كلامًا حول الإله حورس والطائر المصري، كان يتحدث بحماس عظيم، وصوته الجهير يرتفع كلما تقدم في الشرح والتفسير، ولما كانت المدرسة تقع في مكان منخفض من البلدة وسورها منخفض، فجذب صوته بعض الأهالي فوقفوا صامتين يتابعون حديث الناظر عن العلم الذي خاض جنودنا البواسل المعركة تحت خفقانه، وحكى حكاية عن الراية التي كان يتبادلها المسلمون الأول ويدافعون عنها ويستشهدون غير

سامحين للراية بالسقوط أو حتى تمس الأرض، ثم صرخ: الله أكبر. فكبرنا خلفه، وكررها ثلاثًا، وكذا فعلنا والحماس قد وصل مداه الأقصى بنا، استدار للصارية وشبك العلم بالحبل وظل ممسكًا بطرف الحبل، وهتف: النشيد الوطني.

والله زمان يا سلاحي اشتقت لك في كفاحي

انطق وقول أنا صاحي يا حرب والله زمان

لا يمكن بحال تقدير الهدير والزئير الذي جأرنا به النشيد وردده الوادي خلفنا، درجة عالية من الارتجاف والطهارة الغضة تردد بكل مكامن أرواحنا النشيد الوطني. بينما الناظر على مهل يرفع العلم على الصاري، وحانت مني التفاتة لوجه ناظرنا فارتبكت وتداخل صوتي، فقد رأيت حبات دموع تتلألأ نازلة على صفحة وجهه الأسمر، فبانت في انعكاس أشعة الشمس كحبات لؤلؤ، حين وصل العلم قمة الصاري، لم يستطع الناظر ربط الحبل. فقد كان جسده كله يرتجف، تقدم واحد من المدرسين وقام بربط الحبل، واستدار قائلا: تحية العلم. وكانت تلك الإشارة تخصنا، تلقفناها وهتفنا بعزم ما فينا: تحيا جمهورية مصر العربية.

تمالك الناظر ارتجافاته ومسح وجهه بالمنديل الذي أخرجه من

جيبه، وقال بعد أن أنهينا التحية: طلعوا كراسات الرسم. كنا قد رجعنا لمواقعنا بين التلاميذ بعد أن قدناهم في التحية، تساءلنا: المدرسة كلها.. من سنة أولى حتى سنة سادسة؟ قال: المدرسة كلها.. طلعوا الكراسات وارسموا العلم.. خليكم هنا في الحوش وارسموا العلم.. أول درس عندنا السنة دي: العَلَم.

تعالت صيحاتنا ونحن نخرج الكراسات والألوان ونقرفص في أرض الحوش تحت سماء طرية وشمس ترسل أشعة الدفء لأجسادنا التي غمرها الحماس وهي تنظر للعلم الخفاق فوقنا ونحن نخط بالألون الخطوط الأولى للعلم.

•••

أين ذهب كل هذا الحماس والاتقاد؟ كيف توارى العلم ولم يعد له قيمة في حياتنا؟ لم يعد خفقانه يحرك مشاعرنا تجاه رمزية الوطن وقيمته! كيف تم التباعد على هذا النحو المُرّ؟ أتساءل عن القصدية، هل تم ذلك وفق منهجية محددة، أم إن ما جرى كان عرضًا لما انتاب حياتنا كلها وأصابها بالخلل والعطب في مناحيها كافة؟ وهل لذلك علاقة بتبدل منظومة القيم؟ لا أريد أن أقول انهيارها خلال العقود

الماضية. لكن قبل الغرق في بحر الأسئلة المتلاطم والبحث عن أجوبة، دعونا نتعرف على حكاية العلم في البداية.

اتخذت الجماعات منذ بداية تجمعاتها رموزًا تدل عليها، وكانت ترفع هذه الرموز ليتعرف أبناؤها عليها في حال السفر أو التحرك في الغابات والبحار وغيرها، وغالبًا ما كانت تلك الرموز تمثل طوطم القبيلة أو الجماعة، وتم نقشها على رايات أو قطع من الأخشاب بحيث تكون ظاهرة للعيان ودالة، ويعتبر المصريون القدماء من أوائل الأمم التي اتخذت لها أعلامًا ورايات في حروبها الخارجية، وتوجد نقوش كثيرة بالمعابد المصرية توضح استخدام الرايات والأعلام في الاحتفالات الخاصة بالانتصارت، بالطبع الأمر لم يكن متوقفًا على المصريين وحدهم، فكل الحضارات القديمة: الصينية والهندية واليونانية والرومانية، عرفت الأعلام والرموز، والتي كانت تستخدم بأشكال أكثر حماسية في أجواء الاستعداد للحروب والغزوات والدفاع عن الأرض، حيث يقوم العلم بمهمة تجميع الأمة وتوحيد طاقتها وشحذ الهمم.

يشير العلم لكيان الأمة، متمثلا حضارتها، تاريخها، ماضيها وثقافتها وما تتطلع إليه في مستقبلها، بمعنى أنه يقدم ما تمثله الأمة من

ثقافة وحضارة، وذلك عبر رموز بسيطة وشديدة الوضوح وعميقة المعنى في نفس الوقت، أي أنها تكتنز تاريخ الأمة وما ترنو إليه في المستقبل. وغالبًا ما تكون أرضية العلم من لون واحد يتوسطها رمز الأمة، أو عدد من الألون التي تعبر عن فترات من تاريخ الأمة. أما الرمز فغالبًا ما يكون ما اشتهرت به هذه الأمة، أو هي متفردة فيه، كالطوطم أو حيوان أو طائر وغيرها من الرموز.

ويخبرنا التاريخ الإسلامي عن اتخاذ النبي صلى الله عليه و سلم راية/ لواء أبيض لما كان يخرج للحرب في سرياته وغزواته، وفي غزوة أحد كان حامل اللواء مصعب بن عمير، وكيف أنه قتل وهو يدافع عن الراية كي لا تسقط، لما في ذلك من إعلان بانكسار الجيش، فقد كان يمسك الراية بيده اليمنى، فلما اشتد القتال وضربه من يهاجمه على يده حتى قطعها، فأمسك مصعب الراية بيده اليسرى، وصمد يقاتل حتى قطعت يده اليسرى، فبرك مصعب بن عمير على الراية ليرفعها بصدره وعنقه حتى قتله المشركون، فلحق على بن أبي طالب بالراية ورفعها قبل أن تسقط، ولعل هذا المشهد هو الذي سوف تستثمره العديد من الأعمال الفنية والسينمائية،

نرى أحد الجنود يرفع العلم وسرعان ما يصاب، لكن يجاهد لنصب الراية قبل أن يسقط شهيدًا.

في التاريخ الحديث، ولما كانت مصر تابعة للخليفة العثماني، كان علمها هو علم الخلافة، وكان من قماش أحمر يتوسطه هلال أبيض أمامه نجمة بيضاء سباعية الشكل. فلما جاء محمد علي ودخل في حروب مباشرة مع العثمانيين، كان ذلك يتوجب تغيرًا في العلم، وهو تغير طفيف، حيث جعل النجمة التي أمام الهلال خماسية الشكل، وظل لون العلم كما هو أحمر، وهو ما يشير لفكرة الكفاح والتضحيات والدم، بينما الهلال يشير لهوية الأمة الإسلامية التي تتخذ من التقويم القمري تأريخًا لها ولميقاتها، والنجمة الخماسية هي رمز مصري قديم موجودة نقوشه على الكثير من المعابد، وكأنما أراد صناع العلم بوضعهم للنجمة الخماسية تحديد مصرية العلم تمييزًا له عن العلم العثماني.

خطا الخديوي إسماعيل خطوة أخرى في الاستقلال بعلم يخص مصر مختلفًا عن العلم العثماني، ففي العام ١٨٦٧م، ومع تكوين أول مجلس للنواب، ظهر العلم الجديد، وهو عبارة عن اللون الأحمر ذاته، وبدل الهلال الواحد الذي يتوسط علم محمد علي،

أصبحت ثلاثة أهلة يضم كل هلال نجمة خماسية، تبدأ الأهلة من قاعدة العلم، اثنان فوق بعضهما، والهلال الثالث أمامهما في الوسط تقريبًا، وكانت هذه الأهلة تشير إلى: مصر والنوبة والسودان، التي يظللها هذا العلم، أو ترمز للانتصارات التي حققها الجيش المصري في القارات الثلاث: أفريقيا، وآسيا، وأوربا. لكن عقب هزيمة جيش عرابي وبداية الاحتلال الإنجليزي لمصر في العام ١٨٨٢م، ألغي هذا العلم وعاد العلم الثماني ليرفع فوق الأراضي المصرية، وظل ذلك ساريًا حتى إعلان الحماية البريطانية على مصر في العام ١٩١٤م، وبذلك فك ارتباط مصر بالدولة العثمانية، مما استتبع الرجوع مرة ثانية لعلم الخديوي إسماعيل.

في عام ١٩١٩م اندلعت الثورة المصرية في الشوارع والمدن المصرية جميعها، وكانت الجماهير التي أطلقت شعار "الدين لله والوطن للجميع" قد رفعت علمًا آخر بجوار علم الخديوي إسماعيل، وهو العلم الأخضر، والذي يتوسطه هلال يحتضن بداخله الصليب، وكانت تلك الراية تشير لأرض مصر الخضراء ولعنصري الأمة، ومع معركة الدستور الجديد، وتصريح ٢٨ فبراير، أخرجت الأمة علمها الجديد، والذي عُرف بالعلم الأهلي، وهو العلم الأخضر

الذي يتوسطه هلال يضم ثلاث نجوم خماسية الشكل، وكما هو واضح من هذا التشكيل للعلم، فالأخضر يشير للوادي الأخضر، كما أنه يعبر عن عقيدة الأمة الإسلامية بتسامحها وقدرتها على العطاء، والنجوم تشير للمملكة المصرية التي تضم مصر والنوبة والسودان، وأيضًا ديانات مصر الثلاث في ذلك الوقت: الإسلام والمسيحية واليهودية. وقد بدأ رفع هذا العلم في العاشر من ديسمبر ١٩٢٣م، وهو العلم الذي كانت بدايات ظهوره في أثناء ثورة ١٩، وهو العلم الذي شهد كفاح مصر في العديد من المظاهرات من أجل الحصول على سيادتها وحريتها، ولفَّت به نعوش الكثير من الذين استشهدوا وهم يحملونه، وهو الذي رفع على قاعدة القناة بعد المعارك الضارية بها في ١٩٥١م، وكذلك بعد الجلاء، وهو العلم الذي خاض الشعب تحته معارك العدوان الثلاثي ببورسعيد ١٩٥٦م.

مع قيام الضباط الأحرار بثورتهم في يوليو ١٩٥٢م، بدأ التفكير في علم جديد، وبخاصة مع إلغاء الملكية وتغير النشيد الوطني، وكان لدى الضباط بالفعل علم، تم تطويره ليظهر بعد ستة أشهر من قيام الثورة، وليعمل جنبًا إلى جنب العلم الأهلى الأخضر، وكان علم الضباط، والذي أطلق عليه علم التحرير، يتكون من ثلاثة

مستطيلات: أسود في الأسفل، وأبيض في المنتصف، والأحمر في الأعلى. يتوسطه النسر المصري الذي يفرد جناحيه، وينظر نحو قاعدة العلم، يحمل النسر فوق ظهره درعًا يحتوي العلم الأهلي الأخضر بهلاله ونجومه الثلاث، وكانت الألوان تشير حسب ترتيبها: الأسود للاستعمار والعهود البائدة التي كانت ظلامًا على الأمة، بينما الأحمر، وهو لون التوهج والدم والكفاح، يشير للتضحيات العظيمة التي قدمها أبناء الوطن لتخليصه من براثن الظلم والاستبداد، واللون الأبيض، والذي يشير للنقاء والصفاء، يدل على المستقبل المشرق الذي تخطو نحوه البلاد. أما النسر أو العقاب المصري، كان صلاح الدين الأيوبي قد استخدمه في الراية التي كان يرفعها الجيش المصري تحت قيادته، وخاض بها معاركه مع الصليبيين في حطين وغيرها تحت خفقات جناحيه اللذين يفردهما على اتساعهما. هذا النسر، والذي يشير للرفعة والسمو، وأيضًا تفرد مصر بامتلاك هذا الطائر على أراضيها، فقد نقش في مجلس الشعب أيضًا، وضرب على وجه العملة المعدنية بديلا لصورة الملك، وصار شعارًا للدولة، حيث تختم به جميع أوراقها ومعاملاتها؛ هذا النسر تطور حتى أصبح هو النسر الذي يضم جناحيه كما في

العلم الحالي. وظل هذا العلم يرفع حتى العام ١٩٥٨م، عام الوحدة العربية مع سوريا، تم عمل تعديل طفيف في علم التحرير، بأن رفع النسر منه، وحلت محله نجمتان خماسيتان خضراوتان تتوسطان المستطيل الأبيض، وهما يشيران لمصر وسوريا، والأخضر للتقدم والرخاء القادم مع الوحدة، وحين تم الانفصال من الوحدة في عام ١٩٦١م ظل علم الوحدة كما هو حتى عام ١٩٧٢م.

مع بلوغ السادات سدة الحكم، ثم إقامة اتحاد الجمهوريات العربية: مصر وليبيا وسوريا، استبدل الصقر المصري المجنح بالنجمات في علم التحرير، صقر الإله حورس، والذي ينظر لطرف العلم، وليس لقاعدته، ويصير هذا الصقر شعارًا للدولة في أختامها ومعاملاتها، وسوف يضرب على وجه العملات المعدنية؛ هذا العلم الذي خاض المصريون تحته معركة السادس من أكتوبر ١٩٧٣م، وهو الذي رفع على سيناء في أثناء المعارك وعقب تحريرها. وظل هذا العلم حتى ١٩٨٤م، أي بعد تولي مبارك الحكم بثلاث سنوات، تم الرجوع لعلم التحرير المعدل، حيث النسر الذي يضم جناحيه -عقاب صلاح الدين- متجهًا بنظره ناحية قاعدة العلم، وكما جرى سوف ينقش على العملات المعدنية ويصير شعار الدولة في أختامها وتعاملاتها.

2-

لوحات وصور

سوموزا يزيح الستار عن تمثال سوموزا في استاد سوموزا

ليس لأني أعتقد

أن الشعب هو الذي أقام هذا التمثال

لأني أعرف أكثر منكم أنني أنا الذي أمرت بذلك

ولا أزعم أنني سوف أدخل عالم الخلود به

لأني أعرف أن الشعب سيحطمه ذات يوم.

وليس لأني أريد أن أقيم لنفسي في حياتي

النصب التذكاري الذي لم تقيموه في مماتي

أنا أقيم هذا التمثال

لأنني أعرف أنكم سوف تكرهونه

أرنستو كاردينال- نيكارجوا

ترجمة: طلعت الشايب.

أين ذهب العلم؟ كيف توارى مختفيًا بعيدًا عن حياتنا؟ لم نعد نراه، أو حتى نبادر بالسؤال عنه، كأنما سقط منا ونحن نجري ونلهث في دروب الحياة دون أن ننتبه أو نشعر بذلك، ولم يكن بمقدورنا أن نتوقف لنكتشف اختفاءه، كأنما سرق بليل أو في وضح النهار وتحت أبصارنا التي صارت لا ترى حولها، فقط هي مربوطة بجريها وسعيها وراء ما تتصور أنه لقمة العيش وهموم الحياة اليومية المتعبة، لم يكن من وقت للتوقف والسؤال، مع وجود فيضان من الوقت المهدر في لا شيء، فقط هي أوقات طويلة وضائعة في صراعات ضيقة وتافهة، نتصور وقت حدوثها أنها صراعات حياة أو موت، صراع وجود، لكنه وجود فردي أناني لنصير جُزُرًا بعيدة منفصلة عن ذاتها وعما يحيط بها، على الرغم من أن تَبَصُّرًا بسيطًا ودقيقًا، سيبين أننا غارقون في نفس المستنقع، وإن اختلف في الكيفية والعمق، لكننا جميعًا نتنفس نفس فساد الهواء، ونرى، أو لا نرى، حياتنا التي تتسرب منا.

هل ما جرى كان مقصودًا، ومخططًا له، أم جاء هكذا؟ نسينا تغير الأعلام التي بددتها الرياح وتركت لنا الصواري خالية من راية ترفرف فوقها، حتى صار شكل الصارية المنتصبة شائنًا، فكان لا بد من التخلص منها، حتى لا توخذ ضمائرنا المعطلة، نبعدها حتى يصير السؤال عن العلم في غير محله، وليس مهمًّا، بل قد يكون نوعًا من المزايدة والوساوس والرغبة في الظهور بمظهر الوطنية.

كان العلم يظهر على استحياء في بعض المناسبات، كمباريات كرة القدم الوطنية، كان ظهورًا شكليًّا، كأنما هو جزء من طبيعة الاحتفال، ويتم التخلص منه عقب الانتهاء من البطولة أو المبارة، فيرمى كيفما اتفق غير مأسوف عليه، لم يكن له دور في شحذ الهمم أو حتى القدرة على توحيد المشاعر تجاه الوطن، وليس تجاه البطولة أو المبارة، راجت في تلك اللحظات تجارة بيع الأعلام، وبجميع الأشكال والأحجام، أو حتى في جعلها وشمًا يزين الخدود والجباه، وعلى الرغم من أهمية ذلك، فإنه بدا شيئًا ناقصًا، غير موجود، شيئًا أبعد من الفرحة الاحتفالية، والمظهرية الشخصية، شيئًا يخص الروح في صميم كينونتها.

في المدارس والمصالح، وأمام المباني الحكومية: مبنى المحافظة،

وأقسام الشرطة، ومديريات الأمن، والوزارات، وداخل مكاتب المديرين، ورؤساء الأقسام. اختفت صورة العلم وحل بدلا منها صور أخرى، صور تخص رئيس الدولة أو واحدًا من أفراد عائلته، تم الاستبدال، استبدال الشخص المتغير والزائل بالرمز والقيمة المقيم، وليس بعيدًا عن هذا تصور أن المساس بالرئيس هو مساس بالوطن ذاته، في مساواة جائرة وفاجرة للوطن بالأشخاص، إنما الأشخاص يجيئون ويرحلون ويتبدلون، والوطن قائم وراسخ.

في جميع الميادين المنتشرة بالمدن، وفي الشوراع الرئيسية، وفوق لوحات الإعلانات وأسطح البنايات الكبيرة والمميزة، وملاعب الكرة، وأماكن تجمعات الشباب، يختفي العلم بالإهمال والتجاهل لتحل محله صور الرئيس مع المحافظة على دوامها وتجديدها. تلك الصور التي تظهر الحاكم في شبابه، بكامل قوته وعنفوانه وبسمته الواثقة، هذه الصورة لن يتم تبديلها على الرغم من مرور الزمن، على الصورة وصاحبها في حقيقة الحياة، لا يمكن للسلطة أن تشيخ، أو تدركها عوارض الزمن، لا الشخص، وبالتالي الصورة، يجب أن تظل دومًا منيرة وبهية تظهر قوة السلطة وتجبرها، أما البسمة فقط لإضفاء بعض من السمات الإنسانية على السلطة، وكيف أنها رحيمة

ومتفهمة، وأيضًا قادرة على بث الأمل والابتسام في معاركة الحياة، وهكذا حينما ترى دومًا صورة الزعيم مبتسمًا، هل يمكن أن تفكر في أن سبب ما تعانيه في حياتك هو هذه السلطة التي ترزح تحتها، بينما هي طوال الوقت تؤكد لك -عبر بسمتها الهادئة والواثقة- أن غدًا سوف تحل مشكلاتك كافة، وأن هذا الغد الذي سوف نصله بقوة الزعيم الخالدة، كما تراها، وبسمته المطمئنة، سوف يجيء، إن لم يكن غدًا، فبعد الغد على أقصى تقدير.

كنا نتساءل دومًا عن عوامل الزمن التي لا تلحق باللوحة، مع أن الرياح مزقت أعلامنا وبعثرتها مزقًا فتطايرت إلى حيث لا نعلم أو ندري، فكيف إذن للرياح والرطوبة والأتربة والأمطار وغيرها من عوامل الطبيعة والزمن، لم تتجاسر على الاقتراب من صور الزعماء في الميادين والمصالح؟ كيف لها أن تتجاهل وجودها وتتعامل معها على أن أماكن تواجدها هي أماكن منزوعة القدرة من العمل فيها، وبالتالى يمكن أن تمد يدها إليها؟ هل تخاف هي أيضًا وتحذر من بطش الزعيم وسلطته المطلقة؟ فإذا كان للمرض الذي يصيب أي إنسان لا يمكن له أن يقترب من جسم الزعيم أو يحوم حوله، لذا لن نسمع طوال سنوات حكم أي زعيم أنه مرض أو ألمّ به توعك

صحي بسيط. كأن أصيب -كعباد الله- بنزلة برد أو إسهال أو بلغ سن الشيخوخة والتقاعد. فالسلطة لا يمكن لها أن تمرض أو تشيخ.

على الرغم من السخرية في ذلك، فإن السخرية الأكثر حدة كانت كامنة في كل الصور المنتشرة للزعيم بالأماكن والمكاتب كافة، ربما لم ينتبه صانعو تلك الصور وواضعوها والمكلفون بحمايتها والسهر عليها وتجديدها، أقول لم يكونوا منتبهين للسخرية الحادة والهازئة الكامنة في تلك اللوحات، أو هم في عماء مهامهم النفاقية والوظيفة متصورون أن ما يقومون به هو خدمة جليلة للوطن وليس خدمة النظام والزعيم، أو أن عقولهم ووعيهم القاصر والضئيل لم يمكنهم من قراءة وفهم السخرية الراقدة في أصنامهم التي يحرسونها ويعملون على تلميعها وتنظيفها وإبعاد يد الطبيعة وعوارض الزمن عنها، أو هم يؤدون ذلك بحكم العمل، وعبادة المأمور إجابتهم على ذلك. لكنهم في كل الأحوال كانوا يعملون على تثبيت ما لم يكن له أن يثبت مخالفًا لكل قوانين الحياة والطبيعة. وإحلال ما هو زائل بديلا للدائم والمقيم في الوجدان، وهنا تكمن السخرية الأشد مرارة، فعند أول بادرة للتغير سينكر أولئك ما فعلوه طوع خواطرهم.

سأتوقف هنا عند ثلاث لوحات للدلالة على ذلك. واللوحات من

ميادين وشوارع أسوان، وأظن آن أمثالها وشبيهاتها كانت منتشرة بطول البلاد، وعلى مدى أعوام طويلة، وهي في ظني كفيلة بأن تضع يدنا على السخرية التي لم ينتبه لها الموظفون، وعلى مدى الفجاجة الفضائحية في ارتكاب مثل تلك الأفعال في وضح النهار دون حساب من السلطة التي كانت تلك الصورة تشينها وتقلل من قدرها في عين من يشاهدها، لكن غباء السلطة الذي لم يدرك، ولم يكن له أن يدرك وهو في فرط نشوته من السلطة المطلقة التي صار ينعم بها، ولا قدرة لأحد على محاسبته، وعندما ترتفع بعض الأصوات المضادة كان يتم اسكاتها بالعديد من الطرق، ليس أقلها الإهمال والتجاهل، كما في حالة العَلَم.

كان العلم فى لحظات ظهوره، خلال مباريات كرة القدم، يحاول أن يستعيد لو جزءًا من مكانته، قدره. كم كانت تلك اللحظات سعيدة ومبهجة وأنت تراه يخفق تهزه يد الجماهير التي رأت حياتها دون قيمة ودون إنجاز وانتصار واحد يسهم في رفع معنوياتها، ويؤكد وجودها في هذا العالم، وتقول كلمتها، وتؤكد مكانتها! حتى إن جاء هذا عبر مباريات الكرة وتحقيق لبطولة قارية، حتى وإن تم استخدام مباريات كرة القدم لإلهاء الجماهير وتفريغ لطاقة الجماهير. عقب

الفوز ترى العلم يجوب الشوارع تحت وقع الأهازيج والرغبة الجارحة في التحقق والوجود، لكن ذلك كله سوف ينحسر سريعًا ويضيع أثره بالتجاهل والنسيان بعد انقضاء البطولة بوقت قليل، ثم الفشل المتكرر في الصعود للبطولة العالمية، ثم صاعقة صفر المونديال، وعلى الرغم من أن هذا الصفر كان تقييمًا حقيقيًا لأداء السلطة وقدرتها، فحتى هذا سيتم دفنه في مستنقع الغطرسة والنسيان بعد ذلك، لكن صفر المونديال ظل ساخرًا ومشهرًا ولا يمكن تجاهله، وهو ما أدى للأفعال المتشنجة والمجرمة، والتي وضعت الوطن على شفا الحرب مع بلد عربي شقيق، وهو ما جرى فيه التلويح وحشد جماهير الكرة المغيبة تحت راية العلم المهيض الذي كان رافضًا لذلك الاستخدام المهين والمزري لقيمته، وهو ما بدا واضحًا من تلك الأيدي التي وضع العلم في قبضتها وعقدته حول صدورها قائدة للكفاح ضد بلد عربي آخر، بينما العدو الحقيقي على بعد خطوات من القاهرة، ومرابط بجيوشه على الحدود، ولا يمكن لتلك القبضات والصدور أن تلوح، مجرد تلويحة بالعلم، في وجهه.

●●●

اللوحة الأولى كانت معلقة على كورنيش نيل أسوان، في الطريق الوحيد الذي يمر به الرئيس عند زيارته للمدينة، فهو لا يتورط أبدًا في دخول شوارع المدينة الداخلية، أو هكذا أرادوا له، فقط الكرونيش، وصولا لمبنى المحافظة وقاعة المؤتمرات ومديرية الأمن، الشارع مكشوف تمامًا، وسهل تأمينه ومنع البشر كافة من التحرك فيه عند قدوم الرئيس. كان هذا الشارع في سنوات سابقة هو ما يفضله عبد الناصر لملاقة الجماهير الحاشدة التي تقف بانتظار مروره، وكذا السادات في بداية حكمه حتى اندلاع ثورة يناير ١٩٧٧م، مرة واحدة صفوا طلاب المدارس على الجانب الوحيد البعيد عن النهر للترحيب بالرئيس مبارك وضيفه الفرنسي، وذلك في بداية حكم مبارك للبلاد في العام ١٩٨٢م، ولم يتكرر هذا المشهد ثانية، فقط يمر الزعيم في الشارع الخالي تمامًا إلا من رجال الأمن واللوحات التي رصت للترحيب به ومبايعته في حكم البلاد والعباد، وما أظنه كان يلتفت لها، فهو داخل سيارته المصفحة السوداء المغلقة نوافذها، غير عابئ بتلك اللوحات وغيرها، فهذا وضع طبيعي للزعيم، حيث إن الجماهير التى لا يراها، إنما هي تبايعه وتهتف بحياته، وخير دليل على ذلك كثرة المقاطعات له في أثناء إلقاء خطاباته التاريخية، تلك

المقاطعات التي تهتف بحياته وتمجد عقله وحكمته وعدالته. إذن ما الداعي للنظر إلى صورة له أو لوحة ترحب به و تبايعه، إنما كتبت تلك اللوحات ووضعت تلك الصور لتقرير ما هو كائن داخل نفوس الجماهير وأرواحها المستعدة بأن تدلقها تحت قدمي الزعيم.

في مواجهة مبنى التجديف، وإلى اليسار من مبنى البريد والمدرسة الثانوية للبنات، علقت اللوحة، كبيرة وبراقة، تجذب العين نحوها. اللوحة تجمع ما بين صورة الزعيم والكتابة التي تعبر عن إرادة الجماهير. هكذا أراد صانعوها. يقف الرئيس بطوله، شابًا قويًا وبهيًا ببذلة سوداء وبسمة خفيفة، لكنها واثقة مطمئنة، حذاء الرئيس الأسود شديد اللمعان يقف على أرضية حمراء، بينما خلفية الصورة كان الأبيض الناصع، وتحت البساط الأحمر الذي يقف الزعيم فوقه كتبت عبارة: دماؤنا سجادة حمراء، فتمخطر عليها بقدميك.

علقت الصورة على حائط بناية من عمائر الكورنيش، بحيث تكون في مواجهة موكب الرئيس في أثناء مروره بالطريق، فلا يمكن لعينه، مهما ادعى التشاغل، أن تتجاهل لوحة بمثل هذا الحجم والضخامة، وأيضًا الإبهار والتفاني في إظهار الولاء الكامل والخضوع

لمشيئة الزعيم مهما تكن متطلباتها، فأي شيء فى الحياة ليس أغلى بالتأكيد من الدم الذي يتمخطر الرئيس فوقه، ويوقع بحذائه عليه، دون أن تمس أو تلطخ نصاعة الحذاء نقطة دم واحدة.

"بالروح.. بالدم.. نفديك يا ريس". أيًا كان الرئيس؛ هتاف اقترحه إعلام السلطة وتم تثبيته من قِبَل الجماهير. كان ذلك يمثل البدايات المخزية لإحلال الزعيم محل الوطن في الهتاف، وثم على الأرض، كانت العبارة المكتوبة -آسف الصورة- تذهب أبعد وتقفز في نفاقها لمدى لا يمكن تصوره، لكن يمكن تقبله داخل دوائر السلطة، والتي تحتاج لتأكيد أبنائها من الخارج كي تستشعر الرضى عن نفسها، وهي أدوار متقنة يتبادلها الجميع، وأيضًا، وهو الأهم، الدور الذي تقوم به خارجها وتثبيت دعائمها ورهبتها وقسوتها داخل نفوس الجماهير الخاضعة لها، فليس مهمًا دم الانسان وحياته في مقابل الوطن، دون التساؤل حول ما يقدمه هذا الوطن لأبنائه، وهل بالفعل يستحق هذه التضحية الثمينة، أم أن التساؤل يصبح نوعًا من التطاول وعدم اللياقة، والتي يجب أن يعاقب عليها الفاعل؟ وإذا كان الوطن يستحق مثل هذه التضحيات أيًا من كان يقدمه، فهل تستقيم التضحية تجاه الزعماء، وأن يكون لهم نفس حقوق

الوطن؟ طبعًا لن تعدم من يحاجج بأن الرئيس أو الزعيم هو رمز لهذا الوطن، وبالتالي فإن المساس به، أي المساس بالرئيس، يعني المساس بالوطن؛ هذا النوع من القياس هو قياس داعر لأنه يساوي بين طرفين لا يمكن المساواة بينهما بأية حال. فالرئيس مثلا يموت، كأي واحد من الناس، فهل يموت الوطن بموته؟

لا أقدر الآن على وصف الغضب والحنق الذي انتابني وأنا أشاهد اللوحة لأول مرة. فلم أكن لأتصور أن الفجاجة والإسفاف يمكن أن يصل لهذا الحد المزري، والاستخفاف المشين بمشاعر العابرين أمام اللوحة أو قريبًا منها. فاللوحة تحاصر الميدان الصغير الذي يحده النيل من الغرب، وتظل تطارد من أعطاها ظهره لتثبت عيون الزعيم عليه فلا يشعر بالراحة. فهناك من يتلصص عليه، وعلى مشاعره، وعلى غضبه الذي يحاول كبته. كانت المشكلة الأكبر لمن يمر قرب اللوحة، غاديًا في مواجهتها أو رائحًا معطيها ظهره. فاللوحة وضعت بحيث يكون حذاء الزعيم الغالي واللامع فوق رأس العابر، ولا بد لك من أن تنحني قليلا حتى تمر من تحته. أي شيطان تفنن في تلك الوضعية وبهذه الكيفية؟

بعد عدد من المرات من مشاهدة اللوحة بهذا الغضب والشعور

بالغثيان بدت اللوحة تكشف عن أسرارها وسخريتها الحادة، من الزعيم والمقولة ومن صنعها، حتى لصارت الفرجة عليها نوعًا من تحفيز الهمة للتخلص من هذا النظام الذي أفرز هذا النوع من الغباء والغطرسة الجاهلة.

عند تأمل هادئ للوحة، وتناسي صورة الزعيم المهيمنة عليها، فقط التركيز على ألونها سوف نجد العلم متجليًّا في أبهى ألوانه: الأحمر والأبيض والأسود. فسجادة الدماء حمراء، وأي شيء أغلى وأزكى من الدماء التي سالت لتفتدي هذا الوطن وتطهر أراضيه وتدافع عن كرامته، إذن هي دماؤنا التي رفرف العلم مزدهيًا بها، بينما سواد البذلة التي يرتديها الزعيم هي سواد أيامنا، وكما في العلم تشير لعصور الاستبداد والظلم والاستعمار، وأي استبداد وظلم واستعمار حل بالبلاد أكثر مما عم بها عبر الزعيم وأعوانه المتكاثرين في البلاد؟ أما الأبيض الذي في خلفية اللوحة، فهو المستقبل المؤجل بكل اقتراحته وأحلامه وتطلعاته نحو الحرية والتقدم والعلم والعدالة والخير والحق، يبقي في الخلف لأنه كامن في الوعي وعميق داخل الروح، ولا يمكن التفريط فيه مهما تكن العوامل التي تصدرت اللوحة كي تحجبه وتداري عليه وعلى ظهوره

المبهر. إذن اللوحة هي العلم بالرغم من كيد صانعيها، وما أظنهم كانوا ليدركوا ذلك، فقط هم رأوا في الألوان تقريرًا لما يريدون: السجادة للدم، والسواد لأنه يناسب الزعيم ويكسبه وسامة مفتقدة، والأبيض لخلق التوازن فقط. بقيت العبارة، وهي بدورها ستنقلب على ما يريدون.

"دماؤنا سجادة حمراء، فتمخطر عليها بقدميك".. هكذا تقول العبارة. والسؤال الآن: من الذى يستطيع السير فوق الدماء؟ عذرًا ليس السير، بل التمخطر. هل يمكن لانسان أن يفعل ذلك؟ أم أن ذلك طبيعة مصاحبة للسفاح. راجع تاريخ القادة السفاحين عبر العالم، وستدرك -على الفور- أنهم وحدهم فقط هم من ساروا، حقيقة لا مجازًا، فوق دماء أعدائهم، والشواهد كثيرة. إذن الزعيم ما هو إلا سفاح كي يتمخطر فوق دمائنا، لكن الكارثة ما تزال موجودة، فإذا كان السفاحون يفعلون ذلك في حروبهم مع أعدائهم. فهل الزعيم يفعل ذلك معنا بوصفنا أعداء؟ هو أو نحن: يتساوى الطرفين. الزعيم عدو ونحن العدو المهزوم، ولذلك وجب الولوغ في دمنا. هو سفاح مضاعف، هكذا تقول اللوحة في سخريتها المرة، ومن خلف صُنَّاعها الجهلة الذين لم يروا ما ترمي إليه الجملة التي

سطروها بنفاقهم المتزايد، ولو خطر على بالهم ما تجرؤوا على خطها. وحتى السلطة في ظل عليائها وغبائها لم تقدر على قراءة صحيحة للوحة، لكنها اكتفت فقط بالقراءة الأولى المنافقة لها والمرضية لتطلعاتها المريضة، لأنها لو أدركت لخسفت بصناع اللوحة الأرض، وما فعلت ما فعلته من مكافأة صناع اللوحة وأجزلت لهم في العطاء.

بعد فترة طويلة من وجود اللوحة وجّه واحد من أعمدة السلطة لومًا خفيفًا للنفاق الفاضح في اللوحة، فجرى رفعها ذات ليل دون أن يدري أحد، وإن ظل مكانها قائمًا يشير للوحة الغائبة، والتي كانت للعلم، وكتب تحتها: إن من يحكمنا سفاح، مجرد سفاح، يسير فوق دمائنا.

•••

في واحد من أعياد أسوان القومية، والذي يوافق منتصف شهر يناير من كل عام، طلبت من طلابي بالمدرسة، ربما على خطى الناظر عبد العال أيام كنت طالبًا في المدرسة الابتدائية، أن يقوموا برسم علم أسوان، وكان ذلك توطئة مني للحديث عن عيد أسوان القومي، والذي اتخذ من افتتاح السد العالي في ١٥ يناير ١٩٧١م مناسبة

قومية لجعلها عيدًا للمحافظة. كنت أريد الحديث عن تلك الفترة من تحويل مجرى النيل وبدء عمل التوربينات المولدة للكهرباء التي تغذي مصر كلها، مدنها وقراها ومصانعها وشوارعها، وكيف كان لازمًا تمثيله داخل العلم الأسواني، فعلم أسوان يقوم على خلفية زرقاء في إشارة للنيل وبحيرة ناصر، وفي المنتصف ترس الصناعة، أو قل هو المولد للطاقة الكهربية، تلك المتمثلة في البرجين الهائلين المعصوبة رأساهما بالشرارات الكهربائية، البرجان يمثلان أيضًا الألِفَيْن في كلمة أسوان، بينما السين والواو والنون تم دمجهم داخل الترس؛ تكوُّن بسيط لكنه دال على أسوان وارتباطها بالوطن ومدى أهميتها، وبخاصة في مجال الطاقة وحماية مصر من خطر الجفاف عبر البحيرة.

طلبت من الطلاب أن يقوم واحد منهم برسم العلم على السبورة، لما وجدت صمتهم مواجهًا لطلبي، عدَّلت طلبي من الرسم للوصف، أي أن يقوم أي طالب بوصف العلم، لكن الصمت ظل في جانبهم، وعلى استحياء رفع أحد الطلبة يده وتساءل: هيّ أسوان ليها علم؟ وكأن عقدة الصمت قد انفرطت، فرد طالب: كل محافظة ليها علم.

هذه الإجابة شجعتني أن أسأله عن وصف علم أسوان. فقال: مش فاكر. وعاد الصمت مرة أخرى.

•••

حينما جرى تقسيم الاختصاصات داخل العائلة الرئاسية، وقعت الثقافة في نصيب السيدة الأولى، وكان أن ابتهجت الثقافة وتزينت، أولا بكونها أنثى. الثقافة بالطبع، ثم بهذا الكرم الرئاسي، فراحت صور السيدة الأولى تغزو الصفحات الثقافية والكتب وجميع الأنشطة الواقعة تحت رعايتها المباشرة، وصار لا يمكن افتتاح موقع أو منشأة ثقافية لا يمكن له أن يتم لو لم تتكرم السيدة الأولى بتشريفه وقصت الأيدي الرئاسية الشريط الأحمر.

ولأن مشاغل السيدة الأولى جليلة وكثيرة بما لا يتيح لها الوقت الكافي لهذه الافتتاحيات المتتالية، وليس مُهمًّا أن تتعطل الأنشطة أو تتنظر حتى يمكن تدبير الوقت. ففي اللحظة المناسبة ستقوم السيدة بافتتاحه. في ظل هذا السياق تم تعطيل قصر ثقافة أسوان لمدة عامين في انتظار تلك اللحظة التي لا تريد أن تجيء، هذا القصر الذي بني في ستينيات القرن الماضي، أيام المد الصناعي والقومي الذي طال

المدينة، بالطبع أُزيلت قطعة الرخام القديمة التي تشير إلى زمن إنشاء القصر للمرة الأولى، ووضعت الرخامة الجديدة التي تنص على تاريخ افتتاح السيدة الأولى للقصر.

وأنت داخل من الباب الرئيسي للقصر من ناحية كورنيش النيل، ستجد على يسارك جدارية هائلة بعرض الحائط، تحاول الجدارية أن تقبض على بعض التفاصيل المميزة لأسوان، بداية من النيل بمراكبه الشراعية والجزر والنخيل والبيوت ذات القباب وأبراج الكهرباء، وهناك جامع يعانق كنيسة، وكما في العلم الأسواني يوجد ترس الصناعة يتوسط الجدارية، الترس مصنوع من الخشب، وتم تركيبه على حامل معدني بحيث يكون متقدمًا عن الجدارية ومنفصلا عنها في ذات الوقت، على الترس وضعت صورة السيدة الأولى ببسمتها الواضحة الهدوء والثقة، دلالة على أنها، أي السيدة الأولى، هي عجلة الثقافة، فما كان لها، حسب توزيع الاختصاصات، أن تمدد رعايتها للصناعة.

الوضع لن يقف عند هذا الحد، فقد صنعت صورة هائلة للسيدة الأولى -بانر- ليوضع بالمسرح، تتدلى الصورة في الخلفية مغطية خلفية المسرح بأكملها وبعرض الخشبة، لتكون الصورة في انتظار

السيدة الأولى في أثناء تفقدها للقصر وهي تجري مهام افتتاحه، فقد يعن لها أن تقيم حوارًا مع منتظريها من كبار موظفي الثقافة والمحافظة، إذن يجب أن يكون المسرح جاهزًا.

جاء يوم الافتتاح في ١٨ يناير٢٠١١م، متواكبًا مع عيد أسوان القومي، فتزين من تزين ورقص من رقص، وحُبس في الغرف من حُبس، وأُبعد من أُبعد، وجاءت السيدة الأولى وقصت الشريط، وتجولت قليلا في أرجاء القصر، ولم تدخل المسرح لترى صورتها الهائلة التي تنتظرها وتركتها لمصيرها المحتوم الذي سوف تناله بعد أيام قليلة، كذلك صورتها بالجدارية.

هذا الإفتتاح هو آخر ما سوف تقوم به السيدة الأولى ضمن رعايتها للثقافة وأنشطتها، فلم يكن القدر ليمهلها والطوفان القادم يتربص وعلى بعد أسبوع واحد، وهل الأسبوع ببعيد!

•••

حاول أحد المستثمرين الجدد عمل لوحة إعلانية، وقام بالفعل بتأجير سطح عمارة حديثة البناء لوضع اللوحة الكبيرة عليها لتكون

باكورة دخوله مجال الإعلانات بالمحافظة. كانت العمارة تقع في واحد من أهم ميادين المدينة، ألا وهو ميدان المحطة، حيث المدينة كلها تصب في قلب الميدان الكبير، والممتد من محطة السكة الحديد وحتى كورنيش النيل غربًا، حيث الحدائق العامة: درة النيل والسلام، ونصب الجندي المجهول، وبعدهم تقع سينما الصداقة، والتي بُنيت في نهاية الستينيات مع نهاية العمل في السد العالي، وكانت هدية من الروس لأهل المدينة، وأطلق عليها هذا الاسم تخليدًا للصداقة والتعاون بين الشعبين: المصري والروسي. في مواجهة السينما يقوم الحزب الوطني محتلا مساحة كبيرة كانت في يوم من الأيام للاتحاد الاشتراكي، بعد الجزب، وعلى امتداد الشارع تتراص المقاهي، وفي الناحية الأخرى من جهة السينما يقع مبنى المحافظة. أقيمت في الميدان نوافير للمياة ترطيبًا لحر الصيف، فكان أن تجد الميدان دائم الامتلاء، ما بين أهل المدينة وحركة السفر الدائمة التي تعمر محطة السكة الحديد.

تقع البناية التي اختارها المستثمر في مواجهة الميدان وصف المقاهي، وتقع النوافير والحدائق تحتها؛ إذن المكان غاية في الأهمية. لكن واجهت صاحبنا مشكلة وهو يشد حبال لوحته الإعلانية، فقد

تصدت له الشركة التي تملك حق الامتياز، كان الرجل قد صرف كثيرًا والخسارة ماثلة أمامه الآن، هل يستسلم أم يكمل إقامة اللوحة وليكن ما يكون من مواجهات قضائية ليس له قِبَل بها؟ راح يستشير بعضًا من أصدقائه، ولا خاب من استشار، وأشاروا عليه. هكذا قالت إحدى الرويات، بينما تؤكد رواية أخرى على أنه صاحب الفكرة الأمثل للخروج من المأزق؛ أنا من جانبي أرشح أن الفكرة جاءت من جانب الذين استشارهم، لأن الرجل كان غائبًا فترة طويلة عن البلد ولا يعرف جيدًا كيف تدار البلد والأمور، حتى وإن كان يعرف فأظن أن هذه المعرفة تظل نظرية لحد بعيد. والفكرة التي تم تنفيذها تقول إن وراءها عقلا تربى ونشط ضمن هذا المناخ الفاسد.

الحل بسيط جدًّا، يكمن في تحويل اللوحة الإعلانية إلى لوحة تحمل صورة السيد الرئيس، فمن يمكنه أن يقترب أو يعترض على لوحة تحمل صورة الزعيم، وهكذا استيقظ الميدان ذات صباح على لوحة كبيرة تحمل صورة لوجه الرئيس مرتديًا نظارة شمسية، ويرفع يده بموازاة وجهه محييًا الجماهير العابرة بقلب الميدان. عن يمينه يتدلى العلم، وأسفل اللوحة كتب بخط كبير: كلنا بنحبك يا ريس.

كانت اللهجة النفاقية هي الحاسمة على طول اللوحة. وهو ما سوف يصيبها في مقتل، بدءًا من توزيع المساحات بين وجه الزعيم والعلم، وأخيرًا الجملة التي تقطع بشيء لا يمكن الإجماع عليه، وهي فكرة الحب. فكما هو معروف أن الجماعة -أي جماعة- لا يمكن أن تتفق حول فكرة حب شخص، أيًّا كان هذا الشخص. والأمثلة التاريخية كثيرة في هذا السياق. إذن هذا الإجماع الذي تحاول الصورة أن توحي به يدل على عكس ما ذهب إليه صناع اللوحة.

كانت اللوحة تمثل استفزازًا للعابر بالميدان، بينما رآها رجال الحزب في الجانب الآخر من الطريق، أقل من الواجب. بينما لم تستطع الشركة المالكة لحق امتياز الإعلان أن تعترض على اللوحة، فتمادى صاحبها وأقام لوحة أخرى تماثلها في أحد ميادين المدينة الداخلية. أما نحن الذين كنا نجلس على مقاهي: ناصر والجمهورية وفلسطين، فكنا نتحاشى النظر إليها، أو اعتبارها غير موجودة أصلا، بل البعض كان يقولها مباشرة في معارضة للجملة المكتوبة تحت اللوحة: كلنا مش بنحبك يا ريس. ونحن نراه يشير لنا بيده في حركة بذيئة، كما علق واحد منا، هكذا فسرنا بسخرية مريرة تحيته، حيث يبرز إبهامه مواجهًا الناظر إليه. وفسر واحد النظارة

الشمسية التي تحجب عيني الزعيم في التعالي عن الشعب واحتقاره عبر عدم النظر إليه، ولإكساب شخصية الزعيم بعض الجلال والمهابة التي يفتقدها. عن يمنيه، في الصورة، يتدلى العلم متخاذلا محتلا أقل من ثلث اللوحة، فهكذا حجمه بالنسبة إلى الرئيس، أو على الأرجح أراد من صنع الصورة ووضعها في مواجهة الميدان؛ أن الرمز هو الزعيم وليس العلم، الفاني وليس الخالد، العابر وليس المقيم، في تبدل مخزٍ لطبيعة العلاقة؛ يبدو في اللوحة وجه الرئيس وجزء من صدره مهيمنًا على مساحتها، بينما العلم بالكاد يحتل مساحة لولا مخافة اللوم لأمكن محوها تمامًا، وهو ما تحقق في لوحات عديدة أخرى.

كان العلم ينتظر، ينظر بأسى لما جرى له ومن وضعه داخل وعينا، تلك المساحة التي جرى تآكلها بفعل منظم وممنهج، كأنما ضم النسر المصري لجناحيه ألمًا مما أصابه، فقط يتحين الفرصة والوقت ليفرد جناحيه ويعلق عاليًا في الذرى، حيث مكانته ومكانه.

3-

استعادة العلم

لترتفع، لترتفع، يا أيها المجيد
يا أجمل الأشياء في عيني، أنت يا خفاق
يا أيها العظيم، يا محبوب، يا رفيع، يا مهيب
يا كل شيء كان في الحياة أو يكون
يا علمي، يا علم الحرية.

صلاح عبد الصبور

• أسوان تتنبأ

ترددت طوال السنوات الأخيرة مقولة أن نهاية مبارك ستكون في أسوان، بعض الروايات جنحت لفكرة الاغتيال، وبعضها للموت الطبيعي، لكن واحدة من تلك الروايات المتعددة لم تجنح نحو فكرة الثورة وخلعه من كرسي الحكم، ربما بسبب غياب فكرة التغيير وإمكانيتها في العالم الثالث، والتي تقتصر على ثلاث طرق فقط: الاغتيال، الانقلاب، الموت الطبيعي. وهي شائعة حسب ترتيبها السابق. إذن فكرة الثورة مستبعدة، أو هي غير قريبة من الإدراك الجمعي لمجتمعاتنا، وذلك لأسباب كثيرة، منها ما هو تاريخي، وطبيعة الفقر والجهل، وتعاقب الأنظمة الدكتاتورية. كما أن فكرة استبدال الرئيس عبر الوسائل الديموقراطية، مثل الانتخابات، فلم يتم هذا، لا في التاريخ القريب ولا في البعيد، وبالتالي كانت الفكرة تحوم أكثر نحو فكرة الموت: الاغتيال أو الموت العادي.

لكن لماذا أسوان وليست غيرها؟ هل كانت المدينة تنتقم

لتجاهلها خلال الجمهورية الأخيرة للعسكر. فقد كان عبد الناصر يقدر المدينة ويعتبرها موضعًا خاصًا بسبب وضعها الجغرافي وعلاقتها بأفريقيا، ثم مشاريع النهضة التي أقامها النظام هنا: السد العالي، الحديد والصلب، كيما. وأيضًا واحدة من كوارثه المتعلقة بتهجير أهالي النوبة. ثم في الجمهورية التالية له، فقد جعل السادات أسوان المقر الشتوي له، ولعلنا نتذكر أنه في أثناء مظاهرات ١٧ و١٨ يناير ١٩٧٧م، كان السادات موجودًا باستراحته الشتوية هنا، حين هبت الجماهير في وجهه.

حل التجاهل التام طوال العقود الثلاثة الأخيرة، هل كانت المدينة تعبر عن تململها من حكم الدكتاتور على طبيعتها الخاصة؟ أم أنها كانت تتمنى أن يحدث هذا كي ترتاح هي والبلاد جميعها من هذا الهم الرازح فوق صدرها؟ كانت أمنية أم شائعة، أم تكهنًا وخرافة، كما قالت إحدى الرويات: أن عرافة تنبأت بهذا! لكن الرواية لم تفصل هل كانت العرافة تقرأ الطالع للرئيس أمامه، أي أنه هو الذي كان راغبًا في معرفة مصيره. يذكر التاريخ كثيرًا من مشاهد استطلاع المستقبل من قبل السلطة، يوجد دومًا داخل البلاط السلطاني أو الرئاسي المنجم، والسؤال الذي يطرحه

السلاطين دومًا: كيف ستكون النهاية؟ أو عمن سوف يخلفه في كرسي السلطنة؟ أم أن المدينة، أسوان، هي التي استطلعت الغيب السلطاني، أو غيرها من المدن هي التي فعلت هذا وجاءت بالعرافة وكانت أسوان مكان النهاية؟

المدهش في الأمر أن الأمنية، أو النبوءة، تحققت بدرجة ما، وكانت صادقة، وكانت نهاية آل مبارك هنا في أسوان. فقبل أسبوع فقط من قيام ثورة ٢٥ يناير المجيدة، كان مبارك والسيدة حرمه هنا في أسوان. في نفس اليوم قام الرئيس بآخر ما سوف يقوم به من مقابلات مع بعض الجماهير وهو ما يزال رئيسًا، وأيضًا السيدة الأولى ستمارس هواياتها في افتتاح كثير من المواقع باعتبارها شريكة في ملكية البلاد، وهو أيضًا آخر ما سوف تقوم به متمتعة بكل الأبهة الزائفة والمستبدة، فبعد أسبوع من هذا اليوم سيقوم الشعب بالإطاحة بآل مبارك تحقيقًا للنبوءة الأسوانية.

على الجانب الآخر من النبوؤة كانت المدينة -كغيرها من مدن الجمهورية- تسعى للتخلص من الاستبداد وانسداد الأفق، فانضم بعض أبنائها لجميع الحركات التي نشأت لمقاومة نظام مبارك: طلاب، ومدرسون، وأطباء، ومحامون، وإعلاميون، ومهندسون،

وعمال، شباب وشيوخ، رجال وسيدات. كانت تجمعات قليلة، لكنها كانت تقف بشجاعة في الشارع وتهتف وهي محاطة برجال الأمن والمخبرين، بينما يمر المواطنون على الجانب الآخر من الرصيف، الكثير منهم يود لو كان بين أولئك الواقفين، والبعض ينظر باستخفاف لهم ويمضي، والبعض يسخر وقد يرفع صوته بالسخرية، وعلى الرغم من تجبُّر الأمن ومحصارته ومطاردته الدائمة، فإن الرسائل الاحتجاجية كانت -مع التراكم- تفعل فعلها وتؤدي دورها.

• الطريق إلى ٢٥

كان السؤال الأكثر إلحاحًا خلال الفترة السابقة لـ٢٥ يناير: متى ينتهي كل هذا؟ وبخاصة بعد مقتل خالد سعيد ومهزلة انتخابات مجلس الشعب، ولم يتبق سوى أشهر على إتمام مشروع التوريث، بعد هدر فرصة إعلانه من الخرطوم عقب مباراة كرة القدم بين مصر والجزائر، الضجر والتململ يسيطر على الشارع، على الرغم من النشاط المحموم على الإنترنت وصفحات التواصل الاجتماعي، كان الإحساس بأن همومنا واحدة، غير أنها منفرطة؛ تحتاج لعقد يلمها،

يضلمها جميعًا ويدفعها نحو المطالبة بالتغير، وجاءت ثورة تونس لتقول لنا إنه في الإمكان فعل ذلك، حتى مع تبني الشارع العريض لمقولة النظام: مصر ليست تونس. سمعتها من أفواه كثيرة، خاصة من العاملين في المجال السياسي والتنظيمي على الأرض. كانت نبرة اليأس عالية، بينما جماعات أخرى نفت الإمكانية تمامًا، على العكس كان الحال في صفحات الإنترنت ولدى الشباب، حيث كانت الدعوة للنزول ظهر يوم ٢٥، فبالرغم من جرائم النظام، قرر يومها الاحتفال بشكل موسع بعيد الشرطة، بدت المناسبة جيدة للاحتجاج، ورفض تام لكل ممارسات النظام.

ميدان المحطة بأسوان، الميدان الرئيسي بالمدينة، والذي سيصير بعد ذلك ميدان التحرير الخاص بأسوان، احتضن الميدان أعدادًا قليلة من النشطاء السياسيين المعروفين في المدينة ولدى الأمن، ومعهم وجوه شابة تظهر لأول مرة في الميادين والوقفات الاحتجاجية، فتيان وفتيات ينبضون بالحماس ومدججون بالهدير والأمل في غد أفضل مما نحن فيه.

ظهر العلم لأول مرة بالميدان، كانت تحمله أيدي طائرة وبريئة لأطفال يفردونه على صدورهم ويرفعونه فوق رؤوسهم، بدا بهيًا

وهو يدور -بأيدهم- حول الجمع القليل الذي اتخذ من الصينية الرئيسية مكانًا لتمركزه، لم يكن العلم عابئًا برجال الأمن الذين يحاصرون الثوار ويندسون بينهم، أو المتربصين بهم، لكنه كان يوجه نداءً للجماهير الواقفة على الناحية الأخرى من الرصيف: تعال.. انضم إلينا. وهو ما ترجمه الشعار الذي هتف به الثوار: يا أهالينا.. يا أهالينا.. انضموا لينا. وتحدث بعض النشطاء محمسين الجمع للأخذ في التزايد. لم يكن الحديث موجهًا لجموع الثوار بقدر ما كان موجهًا للعابرين بالشارع والواقفين على الجانب الآخر، وأيضًا لرجال الأمن الذين تم تسميتهم في بعض الكلمات.

ارتفعت الأصوات المطالبة بالحرية والعيش وإنهاء الاستبداد السياسي، ورفع البعض اليافطات الدالة على المطالب، بينما كانت الأعلام التي تزايدت في أيدي الثوار ترفرف مزدهية وهي تستعيد جزءًا من كرامتها المهدرة وقيمتها المسلوبة، رفرفت الأعلام تحت وقع النشيد الوطني الذي تغنى به الثوار، معلنين صراحة أنهم لن يتراجعوا حتى يتحقق ما خرجوا من أجله.

على الرغم من هذه الفرحة الناشئة، فإن نظرة واحدة لسطح العمارة المواجهة للميدان، والتي تحمل صورة مبارك، والمكتوب

تحتها: كلنا بنحبك يا ريس..نظرة واحدة كفيلة بأن تقول إن الطريق ما يزال طويلا وشاقًا، فالبسمة الهازئة وحركة اليد البذيئة المشهرة في وجه الثوار، تمثل غصة في أرواح الثوار، وبالرغم مما طرحه بعض الشباب للصعود وتمزيق اللوحة، فإن بعض الأصوات نادت بالتعقل، فذلك سيكون فرصة لضرب الثوار من قبل رجال الأمن المتنمرين للوثوب عليهم.

في المساء قرر البعض السفر للقاهرة، واحتدام النقاش حول البقاء هنا وعدم ترك الميدان لأن الثورة يجب أن تعم الميادين كافة وليس التحرير بالقاهرة، وأن هنا جزء من هناك، كما أن هناك جزء من هنا، خاصة وأن المركزية أصبحت مضروبة عبر وسائل الاتصالات المتعددة، والتي تنقل لنا ما يجري في التو واللحظة حول ما يحدث بالتحرير والميادين الأخرى، وهو ما سوف تتنبه له أجهزة الأمن فتقرر قطع وسائل الاتصال، لكن البعض سوف يسافر للقاهرة لتتناقص أعداد الثوار خلال اليومين التاليين: ٢٦ و٢٧ يناير.

على مقاهي الميدان، والتي أصبحت مقاهي الثورة: فلسطين والجمهورية وناصر. كنا نلتقي خلال هذين اليومين ونجلس في انتظار باقي الثوار للوقوف بقلب الميدان المدجج برجال الأمن،

كانت أحداث السويس وسقوط الشهداء في السويس والإسكندرية والمنصورة والقاهرة يلهب حماسنا، خاصة الشباب الذي كان يضيق نوعًا من حكمة الكبار بالتريث والتعقل.

خلال اليومين كنت أرى العلم ملفوفًا في الأيدي، منطويًا وحزينًا بدرجة ما، يريد أن ينطلق، يرفرف بقلب الميدان، مستعيدًا حريته كاملة وغير منقوصة.

• **جمعة الغضب/ جمعة العلم.**

صباح منعش تتفتح فيه الآمال، برودة خفيفة تسري في الجو على غير المعتاد في مثل هذا الوقت من السنة. كان الاتفاق قد جرى على أن نذهب لبعض المساجد الكبيرة والمركزية ونهتف ونقود الناس صوب ميدان المحطة/ التحرير. كان من نصيبي مسجد أنصار السنة الواقع بضاحية السيل. قبل الذهاب عرجت على يوسف فاخوري، والذي كان يعاني من مغص حاد، تحدثنا قليلا وخرجت متوجهًا للسيل، وصلت بينما الإمام يشرع في خطبته، درت حول المسجد لعلني أجد أحدًا من الثوار، جلست على مقهى قريب، كانت عربات

ورجال الأمن يحيطون بالمسجد، حسمت أمري ودخلت، تلفتُّ بحثًا عن الرفاق، لم أر أحدًا، أدينا الصلاة وسلمت على بعض الأصدقاء الذين يصلون هناك، خرجت وأنا متردد بين الهتاف ورجال الأمن، ولم يكن معي أحد، وتوجهت لجامع الطابية.

هاتفت دكتور هشام عبد الله، والذي كان بجامع الطابية قبل أن أصعد للمسجد، كانت الصلاة قد انتهت، ولا أثر للهتاف أو الزحف الجماهيري، قال الدكتور هشام: قبضوا علينا قبل دخولنا الجامع.. لا تأت.. شوف باقي الناس فين. اتصلت ببعض الأصدقاء وعرفت أن الناس على الكورنيش، فاخترقت شوارع المدينة بالعرض للحاق بهم، وحين رأيت الجموع الغفيرة تسد شارع الكورنيش، والأعلام ترفرف خفاقة تحت شمس الظهيرة الحانية، والزئير الغاضب الذي يرج أجواء المدينة الهادئة، أيقنت أن كل شيء انتهى ولا رجعة لما كان.

بدا الطريق طويلا نحو جمعة الغضب، وعلى الرغم مما جرى في اليوم الخامس والعشرين من يناير، لم يكن هناك وثوق من الكم الهائل الذي سوف يهدر في شوارع أسوان مطالبًا بسقوط النظام، خلال سنوات طويلة وراكدة لم يجد الناشطون السياسين بأطيافهم كافة مشاركة حقيقية من قِبَل الجمهور العام، كحال مصر،

كانت أعداد قليلة في الخامس والعشرين ربما لم تتجاوز المئتي شخص، الحال ذاتها، البعض يقف على الرصيف المقابل للمشاهدة والتفرج ورجال أمن الدولة، لكن بعد ما جرى في السويس من اشتباكات وبداية سقوط الشهداء ثم التجمعات العارمة في القاهرة والإسكندرية والمنصورة والمدن الأخرى؛ كل ذلك كان يؤشر بأن ثمة شيئًا جديدًا ومختلفًا يتخلق ويتكون، روح وثابة ناهضة تنفض عنها غبار وسبات السنوات الطويلة من الصمت الجارح واللامبالاة، روح خرجت ولن تعود لقمقمها اليومي الخانق والمكبل لحريتها وهدرها عبر التفاهة والخوف ولقمة العيش، وفقدان الثقة والإيمان بالقدرة على التغيير.

من عدد من المساجد خرجت الجماهير قاصدة كورنيش النيل، عقب صلاة الجمعة، وجهتها نحو ميدان المحطة الذي به مقر الحكومة، والمحافظة، وأيضًا مقر الحزب الوطني، وحيث نصب الجندي المجهول المواجه للنيل، أعداد غفيرة تتجاوز العشرة آلاف تهتف بسقوط النظام، جاءت من كل النواحي والضواحي ومن مختلف الشرائح، شباب ورجال كبار وسيدات وشابات وأطفال من الفئات الاجتماعية كافة، الكل وحد بينهم الغضب والرغبة

الصادقة في التغيير والمطالبة بحقوق تم انتهاكها عبر سنوات طويلة بخطى جهنمية وممنهجة. ربما لم يكن في وعي هذه الحشود وقتها -على الأقل- القدرة على التنبؤ بما سوف تأتي به الأيام القادمة. لكن في يقين خروجها أن شيئًا قد تم كسره مرة وإلى الأبد، وهو الخوف الذي كان يكبلها، وبالتالي لا يمكن لهذا الحشد الترجع عما بدأه عندما تدفقت قوات الشرطة لتحاصر جموع الغضب الهادرة، كانت الشرطة تريد محاصرة المتظاهرين وتوجيه تحركاتهم. لكن ذلك بدا نوعًا من العبث، فخطت الجماهر نحو هدفها هادرة بكل ما طال السكوت عليه. مسقطة مخاوفها ومعلنة تحديها الواضح لكل الجبروت والغطرسة، فحاصرت مبنى المحافظة والحزب الوطني، وعادت لميدان المحطة، والذي سيصبح مكان تجمعها الدائم وصمودها في رمزية موازية لميدان التحرير.

قابلت عصام راسم وسط الحشد، احتضنني واحتضنته، قال وهو يبتسم: أخيرًا. فوافقت بهزة من رأسي: أخيرًا. وسرنا مع الناس نهتف والأعلام حولنا ترفرف، قلت لعصام: أريد علمًا. وأشرت للأعلام التي من حولنا تبارك هذه الجماهير الثائرة، كنت أحس في هذه اللحظة بالقوة الهائلة التي يبثها العلم في أرواحنا، أردت

فقط أن ألفه حول صدري وأرفعه عاليًا، فالآن نستعيد كرامتنا وقدرنا الذي تم غبنه طوال سنوات من الموات واللاإنسانية.

سيدة كبيرة -ربما في عقدها السادس- كانت تهتف بحرقة بسقوط النظام ويخرب بيته كما خرب بيوت المصريين، كان وجهها ينضح بعرق نبيل جراء المجهود البالغ الذي تبذله كي تجاري حركة الجموع التي يغلب عليها الشباب، اقتربت منها وطلبت منها أن ترتاح قليلا، وأنا أقدم لها يدي كي أساعدها على صعود الرصيف العالي. أرتاح أزاي!.قالت، وأكملت وهي تنظر لي: سيباهم خمسة في البيت.. واخدين بكالوريوسات وقاعدين.. الله يخرب بيتهم. وهتفت مع الجموع: الشعب يريد إسقاط النظام.

رجل مسن أيضًا يلحق به حفيده ويهتفان وسط الجموع، كان الحفيد يحاول أن يخرج الجد، لكن الجد يجره نحو قلب الهدير، بعد قليل كان الولد يحمل عَلمًا ويهتف: الشعب يريد.. والجد يبتسم ويردد خلفه.

عند ميدان المحطة كانت الشرطة قد ضربت حصارًا هائلا يحاول منع تقدم المتظاهرين نحو مبنى المحافظة، والدة نجلاء المناضلة العتيدة ذهبت إليهم وهى تقول: إيه.. إنتو مش مصريين ولا إيه؟

بدل ما تقفوا لنا.. أقفوا لهم. جريت للحاق بها خوفًا من أن يعتدي عليها واحد من الأغبياء المدججين بالسلاح، رحت أسحبها بعيدًا عنهم، وهي تطلق قذائفها نحوهم: سيادكم.. بتحموا سيادكم.

على جانب مسيرة الثوار في شوارع أسوان كان سائحان يتحركان يتابعان المظاهرة، ولد وبنت، يضع يده على كتفها بينما هي تضع يدها حول وسطه، منظرهما يوحي بكونهما عاشقين ضلا الطريق ليجدا نفسهما بجوار ثورة في بداية تشكلها، لكن حرصهما على متابعة المظاهرة في الجانب الآخر من الشارع بدا مثيرًا للريب، وتهامس البعض حولهما. رحت ناحيتهما؛ قلت أحدثهما، لكن ما أن أقتربت منهما من الخلف، حتى توقفت مبتسمًا، فقد كانا يهتفان مع الجموع: الشعب يريد إسقاط النظام. لكنة أجنبية واضحة، لكنها منضبطة في إيقاعها مع نبض الثوار الذين يهتفون بها.

حملة الأعلام يتقدمون المسيرة وعلى الأجناب وفي الخلفية، وقد نظم الشباب الحركة، وفي نفس الوقت يمنعون أي محاولة للخروج على سلمية المسيرة، وهكذا تم إحباط محاولة الاعتداء على مبنى المحافظة، حتى لا نعطي البوليس ذريعة ضربنا وتشتيت هذه الجموع، وعلى الجانب الآخر تقدم بعض الناشطين تجاه قادة البوليس وطلبوا

منهم الإفراج عن الذين تم اعتقالهم لما توجهوا لمسجد الطابية، لم يطلبوا، بل هددوا بأنه إذا لم يتم الإفراج عنهم وحضورهم للميدان في غضون نصف ساعة، فإن هذه الجماهير ستتوجه لإخراجهم بنفسها، وقد تم ذلك، ورأيناهم بيننا بعد ثلث ساعة.

حركة الجمع المتزايد، وقد جعلت من ميدان المحطة مكان تمركزها، استشعرت في وجود هذه اللوحة بعض المهانة الموجهة لها، خاصة وقد كتب أسفل الصورة: كلنا بنحبك يا ريس. في نفاق واضح وصريح، وكانت على وجه الرئيس بسمة خفيفة، هازئة، بدت وكأنها تستخف بالمتظاهرين. وكان قد تم إحباط بعض الاشتباكات التي حاولت بعض عناصر الحزب الوطني ورجال الشرطة افتعالها كي تبرر قمعها للمتظاهرين، لكن الغضب الهادر والمتصاعد من الصدور والحناجر لم يكن ليكتفي بهذا، هكذا صعد شبان خفافًا لسطح العمارة وتسلقوا اللوحة العالية وسط الهتاف لهم والخوف من تعرض أحدهم للسقوط، بهجة عارمة غمرت الحشد وهو يرى الوجه الجامد وقد شقته أيدي الثوار، سكين حادة سريعة النصل راحت تمزق اللوحة البلاستيكية المطبوع عليها وجه الرئيس

وبجواره العلم، في غمرة الفرحة العارمة تنبهت الجموع للعلم، فهتفت في نفس واحد: سيبوا العلم.

أي وعي تفتق في هذه اللحظة، جعل الجميع مع رغبتهم الضارية في تمزيق وجه الزعيم، ألا تمس أنبل ما في اللوحة: العلم. وكأنها بفعلها هذا تستعيد القيمة والمكانة المهدرة لهذا الرمز، تعيد له كرامته التي تم التعدي عليها طوال سنوات طوال، حتى بات وكأنه قد تبخر من حياتنا إلا قليلا.

سيبوا العلم. وغمرت الرجفة بدني وطافت بذهني صورة ناظر الابتدائي العجوز وهو يهدر بالنشيد الوطني وبدنه يرتجف، أكنت أستعيد الرجفة منه، أو كان يردني هذا لقيمة هذا الرمز الكامن بدواخلنا مهما تراكمت عليه أتربة التجاهل والنسيان، ورأيت كثيرين حولي وقد غمرتهم نفس الرجفة، بينما غزت الدموع بعض العيون. بينما كانت الفرحة هي التجلي الأكبر والأعظم على وجوه الشباب، وزاطت الدنيا وتزايد الحماس.

تحركت الجموع تدفعها رغبة خالصة في الخلاص، وتمثل ذلك لها بتهشيم جميع اللوحات التي تحمل صورة الرئيس، فحطمت صورًا

على الغرفة التجارية وواحدة بجوار الماكدونالدز وأخرى عند نقابة التطبيقيين، كانت جميعها خالية من العلم، فقد صار الزعيم رمزًا لهذا الوطن السليب.

تنبه موظفو الثقافة لصورة السيدة الأولى المعلقة بالجدارية الأمامية، والتي يمكن رؤيتها عبر الكورنيش، وخوفًا من أن يقوم الثوار باقتحام القصر، قاموا بنزع الترس الذي يحمل صورتها، تمت تخبئته تحت السلم، لينكفئ الترس على الصورة التي سوف يتم تمزيقها وإعدامها تمامًا بعد أيام قليلة. أما الـ"بانر" المعلق لصورة السيدة الأولى داخل المسرح، فقد تم إنزاله وتمزيقه وتقاسم البلاستيك المرسوم عليه وجه السيدة الأولى، تقاسمه عدد من الموظفين لاستخدامه كمفارش فوق البلاط في الحمامات وفوق أسرة الأطفال ليحمي الأسرَّة من تبول الأطفال الصغار. فالبلاستيك عازل جيد للسوائل ويمنع تسرب البلل، وكذلك مفارش فوق مناضد الأكل.

عادت الجماهير نحو ميدان تمركزها، المحطة، وفي هذه المرة مالت إلى مهاجمة مقر الحزب الوطني، لتكون هذه الإشارة للشرطة كي تغمر المتظاهرين بوابل من القنابل المسيلة للدموع والرصاص

المطاطي، وحدث هرج كبير، جرى هذا تحت رفرفة العلم الذي تركه الثوار من الصورة، وكأنما الآن، والآن فقط، يحق له أن يخفق معمدًا بكل هذا الفوران والدم والغضب النبيل، كأنما هي استعادة واضحة لقدره ومكانته السامقتين.

مع آذان المغرب كانت المدينة معبقة بالرائحة الحارقة لدخان القنابل المسيلة للدموع التي قذفت بغزارة شديدة لتفريق الحشود، لكن الجماهير كانت تهرب للشوارع الجانيبة لتعود بعد دقائق للميدان، فتهجم علينا العربات مرة الأخرى، بل لن تتورع عن اقتحام شارع سعد زغلول لتمطر من فيه بالقنابل، كان الثوار أذكى من رجال الأمن، بحيث يسحبونهم بعيدًا عن الميدان، ويتوجهون نحو المركز، ثم يعودون لميدان التحرير، كانت معركة غير متكافئة بين أيدي لا تمسك سوى بالعلم وحلمها بالحرية. ومصفحات تمتلك الرصاص والغازات المسيلة للدموع. سيظل الكر والفر دائرًا حتى ساعة متأخرة، وكان الثوار قد توصلوا لقرار بعدم الاعتصام بالميدان، حيث سيسهل سحقهم ليلا والقبض عليهم، وأيضًا خوفًا من اندساس البلطجية بينهم، كان الانصراف يتم جماعات، على أن يتم التجمع مبكرًا في الميدان، وإلقاء التحية للعلم المبتسم لصباح الحرية الذي أخذ في الشروق.

• **موقعة الجمل الأسوانية.**

مع حلول صباح ٢٩ هلت طلائع المقهورين من الشرطة، شباب في عنفوان غضبهم جاؤوا من الأحياء الفقيرة والعشوائية، من الحكروب والسيل والسيل الريفي وشرق المحطة والحصايا والجزيرة والقرى القريبة من المدينة، كانت لدى هؤلاء ثاراتهم العميقة والدموية مع الشرطة وتجنيها الوقح عليهم بلا أدنى ذنب، سوى إثبات بطشها وقدرتها الفائقة على بث الرعب في كل مكان، وأنه بمستطاع يدها أن تطولهم في أي وقت.

قال: ما ذنبي؟ في كل مرة أكون ذاهبًا لعملي بالمدينة الصناعية مع طلعة الفجر، أو وأنا راجع.. يومين أو تلاته من الإهانة والسفالة والسخرة.. كل دا يهون وممكن أتحمله، لكن الجوع والقلق الذي يصيب أمي وإخوتي الصغار.. لا يمكن تحمله. كان ابن سبعة عشر عامًا والعائل الوحيد لأسرته.

قال: شكلي مش عاجبهم.. الباشا.. أي باشا فيهم.. لما أسألهم واخدني ليه يا باشا.. يقولي شكلك مش عاجبني.. مع إن شكلي خلقة ربنا برضه.. طب إيه رأيك إن شكل الباشا أصلا مش

عاجبني. قالها وبسمة عريضة مرتاحة تعلو تقاطيع وجهه الأسمر الشاب.

قال: كمالة عدد.. أيوه أنا كمالة عدد.. أصل أنت مش واخد بالك.. كل مرة يطلعوا لازم يرجعوا بعدد معين.. ودايمًا العدد ناقص.. فياخدوني أنا يكملوا بيّا العدد.

غيرهم الكثير الذين انتهكت حرمات بيوتهم وأهلهم أمام عيونهم دون رادع من وازع أو ضمير؛ شباب مثل الزهور التي تم تجفيف تربتها قسرًا وقهرًا، خرجت تستعيد نضارتها ورغبتها الصادقة في حياة إنسانية كريمة، وذلك لن يجيء إلا عبر انتقامها الذاتي النبيل.

دارت معارك شوارع بامتداد المدينة، يهاجم الشباب القلاع الأمنية الحصينة: مديرية الأمن ومركز الشرطة، يرشقونهما بالحجارة والشتائم، وحين تخرج العربات المصفحة لهم، يجرون ويسحبونها نحو الشوارع الضيقة التي لا تستطيع تلك العربات الكئيبة والمتجهمة دخولها، في ذات الوقت يكون جمع آخر قد دار من الخلف مهاجمًا المركز أو المديرية.

كانت أخبار أمس قد قالت إن نفس الاشتباكات جرت في

مدينتي كوم أمبو وإدفو، وتم حرق مقار الحزب الوطني والتعدي على أقسام الشرطة ومقار مباحث أمن الدولة.

كان أكثر ما يبهجني في ذلك اليوم الملبد بالدخان والبارود والغبار مشهد مروق العلم مرفرفًا بين سحب الدخان الكاوية للعيون، والتي أصابتنا بالاختناق والدموع والسعال الشديد، ذلك المروق الآسر، شديد الفتنة والروعة، كأني أسمع همس العلم مع خفقانه: هكذا يتم تعميدي لعودتي الظافرة.

في الميدان كان الحل صعود الكوبري الذي يعلو السكة الحديد والعودة من الناحية الأخرى لقلب الميدان، ونجح الشاب في إشعال عدد من عربات الشرطة وواحدة من قاذفة القنابل، من الصباح للمساء والمعارك ناشبة، ما تلبث أن تهدأ حتى تهب في مكان آخر، ونرى التدافع والدخان ورفرفة العلم. وهو ما أنهك قوى الشرطة تمامًا، مما جعلها في المساء تلملم خسائرها ورجالها وتخلي المدينة للثوار.

خلال الأيام التالية سيبدو واضحًا أنه لا وجود فعليًا لرجال الأمن. لكن بدأت مواجهات ومخاطر تواجه الميدان والثوار من قبل البلطجية ورجال الحزب الوطني وأعضاء المجالس المحلية والشعب،

فقد تم استبدال البلطجي بالعسكري، كان الهدف هو إجهاض الثورة وتفريق من بالميدان وترويعهم، وكانت المشكلة في البداية لا يمكن التعرف على البلطجي وهو قادم نحوك، فهو شخص عادي يرتدي ملابس تشبهنا جميعًا، لكن بنظرة دقيقة لعينيه وطريقة تحركه ستدركه على الفور.

ما بين نخلتين بالميدان، المحطة/ التحرير/ الشهداء لاحقًا، شددنا حبلين ورحنا نعلق عليهما لوحات تفضح جرائم النظام وتكشف عن جرائمه التي ارتكبها في حق البلاد والعباد، يقف بعض المارة للقراءة. البعض يكتفي بالقراءة، والبعض يعلق ثم يمضي، والبعض يقف ليتحاور أو يناقش، والبلطجية يتربصون، تقدم واحد منهم متسائلا بنبرة زاجرة: لو أبوك ح ترضى يتعمل فيه كدا؟ كان يشوّح بيده ويحاول رفع صوته. أجابه واحد من الواقفين وبهدوء بالغ: أولا دا مش أبويا.. لأن أبويا مش حرامي.. ولا ظالم.. ولا كان رئيس.. وبعدين لو أبويا عمل كدا يبقى يستاهل أكتر من كدا. طبعًا لم يوافق الرد هوى المتسائل، اندفع جاريًا ضاربًا الحبل بكل عزمه ليبعثر اللوحات على الأرض ويفر هاربًا، يندفع بعض الشباب خلفه للحاق به، يتعثر الشاب البلطجي لتفلت منه ساعة

يده، لكنه يواصل جريه قبل أن تطوله أيدي الشباب، فيعودون بساعته ونعيد تعليق اللوحات مرة أخرى، وهذه المرة نعلق بجوارها الساعة، وحين يتساءل واحد عن الساعة، نقول له: دي ساعة واحد من بلطجية مبارك.

كنت راجعًا قرب منتصف الليل حين كان البيان الرئاسي يذاع في التليفزيون، وقفت بجوار شباب بسوبر ماركت، كانوا طلبة بكلية الهندسة، وقفنا للحظة واجمين عقب انتهاء الخطاب، قطعها واحد من الشباب قائلا: حرام. بدا أن العاطفة قد تغلبت عليه، لم يمهله زميله، بل قاطعه بضحة هازئة أتمها بقوله: حيلة أخرى. هممت بالدخول في الحوار معهم، لكن الهاتف المحمول الذي بجيبي أطلق رنينه، كان الصديق المخرج المسرحي محمد شحات، قال: الراجل دا عاوز إيه؟ والله خلاني دمعت! ورحنا نبدي مخاوفنا عما سيجري بالغد في الميادين، فالهدف من الخطاب كان واضحًا، وهو جعل الشعب يقف في وجه بعضه، أي شيطان يتفتق ذهنه عن فكرة كهذه، لجعل الشعب يريق دم بعضه بعضًا، ليظل هو متشبثًا بالسلطة. أيًا كانت كمية الدماء والأرواح التي سوف تزهق في مقابل ذلك. لا يهم، المهم فقط أن يظل قابضًا وجالسًا في سدة الحكم.

هلت البشائر في الصباح، وزحفت عربات الثقافة والاستعلامات والمحافظة تجوب شوارع المدينة، جاعلة من الميدان مركز مرورها الدائم، كانت تضع مكبرات الصوت تذيع بعض الأغاني الوطنية، والخطاب الرئاسي، واحد من المحلات المطلة على الميدان، أتى بـ"ساوندات" ضخمة وراح يذيع منها الأغاني الوطنية، وعرفنا أن غرفة العمليات، والتي يقوم على أمرها المحافظ ورجال الحزب الوطني والأمن والبلطجية هي التي دفعت بكل ذلك، بل راحت تعد حشدًا هائلا ليواجه الثوار بالميدان. كانت العربات تدعو الناس للنزول للميدان للدفاع عن الرئيس الذي ترفع صورة على مقدماتها وأسطحها، للدفاع عن مصر، هكذا يقولون.

كان الموقف ينذر بشر مستطير، خاصة مع الأنباء التي نتلقها عبر الهواتف والتلفزيون من الميادين الأخرى، خاصة من التحرير، لكن ذلك لم يفت في عضد الثوار أو يقلل من عزيمتهم. بعد الظهر انطلقت مسيرة على الكورنيش قاصدة الميدان تضم موظفين من الثقافة والشباب والرياضة والمحافظة ومجلس المدينة، تصاحبها فرقة الفنون الشعبية وبعض ممثلي المسرح، يرقصون على وقع الأغاني الوطنية التي تبثها العربات التي تتحرك ببطء بجوار المسيرة.

دخلت المسيرة الميدان من جهة الكورنيش، وتوقفت أمام الحزب الوطني، يفصل بينها وبين الثوار شارع أبطال التحرير، كانت الاستفزازات زاعقة ومليئة بالبذاءات، وكان على الثوار كبح جماح غضبهم، فمن يقف في الناحية الأخرى أهلهم وناسهم، يعرفونهم جيدًا، كما أنهم ظلوا واقفين في مكانهم ولم يتقدموا مهاجمين الثوار.

بدا الفرق واضحًا والانقسام الجلي بين الفريقين، الثوار يرفعون الأعلام في أيديهم عاليًا، بينما الموظفون على الجانب الآخر يرفعون صور مبارك، وأعلامًا قليلة قصيرة، يمسك بها البعض في خزي واضح؛ كان الفرق يقول هنا العلم، الرمز والقيمة، الوطن باختصار، وهناك كان الشخص، الزائل، العابر، والذي لن يبقى مهما طال الزمن. على هذا الجانب يقف من يؤمنون بعدالة ومشروعية ما خرجوا من أجله، ولن يثنيهم شيء، وعلى الجانب الآخر موظفون يتململون خجلا، بل البعض يتمنى الوقوف مع الثوار، في قرارة نفسه يعلم أنهم على حق، لكنه في ذات الوقت ما يزال محكومًا بالخوف ولقمة العيش والتوقيع في دفتر الحضور الانصراف، لذا حينما جاء موعد الانصراف، نظروا في ساعاتهم وراحوا يغادرون

الميدان، بينما الثوار وأعلامهم باقون، وعلى السطح بتراقص العلم المتبقي من اللوحة التي هُشم وجه الرئيس من عليها.

• جمعة التنحي/ جمعة النصر.

كنا قد وصلنا لجمعة الزحف، وهي التي ستعرف فيما بعد بجمعة الرحيل، قبلها بأيام اتفقنا مع صديقنا محمد البصيلي، الوفدي النزعة، أن يتصرف ويأتي لنا بأعلام، وقد جاء بها في هذا اليوم، كنت قد فقدت علمي الذي كان معي، فقد استعاره مني واحد من الشباب عندما ذهبت للجلوس على المقهى طلبًا لراحة مؤقتة، أعطيته له، وبعد فترة اكتشفت عدم وجود العلم، وكنت أيضًا لم أدقق في ملامح الشاب، ولم يأت هو، ظللت لفترة أتلفت بحثًا عنه، لكني كففت وأنا أفتقد الدفء الذي كان يغمرني به خلال الأيام الأخيرة، وعلى الرغم من رواج تجارة الأعلام بالأحجام كافة، لكنها كانت شحيحة والطلب عليها شديدًا.

عقدت العلم حول صدري مستمدًا منه العزم القوي وأنا أصرخ بزميلي جمال فاضل الناشط وشديد الحماس، بعدما أصيب بحالة من الإحباط عقب الخطاب الدراماتيكي للرئيس في الليلة الماضية،

الآن أتبصر لماذا كانوا يتأخرون في إذاعة الخطابات الرئاسية، ذلك أنهم يريدون أن نبيت محبطين، يأكلنا اليأس طوال الليل، ربما ننصرف عند الصباح ونحن نعلنها: مفيش فايدة. لكن لا؛ هذه واحدة من ألاعيبهم، والتي انقلبت عليهم، فالعكس هو ما جرى، التهاب الحماس والتصميم الجاد على إزاحة هذا الكابوس، مهما تلاعب وتعلل محاولا استدرار العطف والتعاطف، فهو -النظام- لم يترك بأفعاله وتجبره، خلال سنوات حكمه، أي مساحة قد ينفذ منها سهم العاطفة.

تحركنا في هذا اليوم نطوف بشوارع أسوان والجموع تتدافع للانضمام للمتظاهرين، كان العلم معقودًا على صدري، أحس به يدفع مراجل الغضب بداخلي للاشتعال وسياجًا يغلفني ضد تيارات الهواء الباردة، أحس بنفسي خفيفًا على وشك الطيران، أهتف بملء روحي: ارحل يعني امشي. وحولي الكثيرون يرفعون الأعلام، البعض عقدها حول رأسه، والبعض يشهرها مهددًا، بينما يتقدم المسيرة علم كبير يحمله الشباب، في بلاغة واضحة، إن ما خرجنا من أجله هو الوطن. بلدنا مصر، والتي استعادت رمزها، وبكل قوتها، وبأهلها وناسها كافة، كانت الزغاريد تتهادى من الشرفات،

والبعض يقدم الماء والحلوى، والبعض يوزع البيانات، وآخر ينظم حركة المرور في الشارع.

بعض الأعلام تتدلى من الشرفات ترفرف فوقنا. تنعكس أشعة شمس الظهيرة عليها فتزيد من بهائها وتجليها الباهر، وعلى الحوائط رسمت ألوان العلم الثلاثة في أكثر من موضع، بينما كان الشباب في الميدان قد رسموا العلم على الأرصفة. ورأيت الأساور العلمية التي تزين الأيدي، وطرح وتحجيبات البنات، بينما الأعلام لونت خدود الأطفال، ودبابيس معلقة في الصدور وعلى أقمصة الشباب، وملصقات، كان العلم يتقدم، وبكل وثوق، مستعيدًا مكانته السليبة.

بدأنا من ميدان المحطة مخترقين شارع السوق وشرقًا عبر شارع البركة، لم نكن متعجلين. يقف الشباب ومراجل الغضب تتأجج بداخلهم، يردون بقوة وتصميم أشد على البيان الخائب الذي ألقاه الرئيس في محاولة لكسب الوقت، في ظني أنه كان يتشبث بالبقاء في الحكم حتى انتهاء فترته الرئاسية في سبتمبر القادم، وذلك بسبب خوفه من التاريخ، فهكذا صرح في خطابه الأول بأن ما قام به من أجل البلد -كما يزعم- سيقوم التاريخ بالحكم عليه، لكنه

في نفس الوقت يخشى قولة التاريخ الختامية عنه بأنه الرئيس الذي قام شعبه بخلعه، وما يعني ذلك من تلطيخ الشرف العسكري الذي يتباهى به، على الرغم من هذا، فإن الوعي الجمعي للأمة أظنه يقف على النقيض من تلك الرؤية، يكفي فقط الإشارة لحكم التاريخ حول الخنوع والرضاء بالظلم والجبروت وحالة المهانة والاستكانة والتراجع التي أصابت مصر خلال العقود الأخيرة، يكفي هذا ليوضح فداحة المقارنة، وبالتالي تزايد حدة الغضب المطالبة بإسقاط النظام ورحيله.

من شارع البركة اندفعت المسيرة نحو منطقة الطابية، تلك المنطقة التي تعد من أجمل البقاع في أسوان، فهي المركز ومزار سياحي مهم، وأيضًا هي الأثر القديم للمدرسة الحربية التي أقامها محمد علي الكبير إبان فترة نهوض مصر الحديثة الأولى، وقام عبد الناصر بإنشاء مسجدها الجامع ذي المآذن العالية في أواخر الخمسينيات، ومن هناك انعرجنا نازلين صوب النيل عبر الشارع الجديد، كانت الأعداد قد فاضت وأصبحت المسيرة عدة مسيرات متتابعة، يلحق بعضها بعضًا، درنا صوب الشمال في محازاة للنيل نستمد منه القوة والصفاء، حتى رجعنا لميدان التحرير، عفوًا أقصد

ميدان المحطة، وبالرغم من طول المسيرة والوقت، فإن التعب أبدًا لم يتسرب لأبدان وعزائم المتظاهرين.

على مقاهي الثورة، فلسطين والجمهورية وناصر، الموجودة بالميدان، كنا نحتسي الشاي والأخبار، نتابع ما يجري عبر القنوات، نتابع التطورات أولا بأول، كنا قد وصلنا لقبل الغروب حين ذكرني صديقي الفنان الموسيقي عبد المنعم عباس بأننا جوعى، ولم نذق شيئًا منذ الصباح، فأشرت للعلم وقلت هو السبب، ضحكنا، وأخبرنا جمال فاضل وبعض الأصدقاء برغبتنا، وإن كان أحد منهم يريد أن يصحبنا في رحلة البحث عن سندوتشات تقيم أصلابنا، فاليوم الجمعة، وبالإضافة للمظاهرات، فنادر أن نجد محلا فاتحًا.

أخذنا شارع أبطال التحرير عائدين للسوق، مررنا بالمركز، قسم الشرطة، ورأينا حشودًا من قوات الأمن المركزي يتم تجميعها داخل شاحنات كبيرة، وقد قطعت العربات المصفحة، وقاذفة القنابل المسيلة الطريق المؤدي للمركز، وسدت الطريق تمامًا، تساءلنا عن مثل هذه الأفعال، واتصلنا بالناس عند المحطة، فربما كان هذا إعدادًا للهجوم على المتظاهرين لقمعهم وتفريقهم، ولكن لم نبعد أكثر من ثلاثمئة متر حتى جاءنا الخبر الذي طال انتظاره طوال السنوات

الماضية، فقد أعلن الرئيس، أخيرًا، أنه تنحى.

وقفت أمام التلفزيون أستمع للسيد المتجهم عمر سليمان وهو يلقي بكلمات التنحي المقتضبة ويكاد صوته يتفطر من الحزن والفجيعة. فردت ذراعي عاليًا، لم أكن قادرًا على الكلام، ولا على أي نحو يجب أن أتصرف، وجدتني أحتضن صديقي عبد المنعم، وأنا أحس بنفسي خفيفًا، وروحي تزغرد داخلي، أنفلت من حضن صديقي لأجد نفسي في أحضان الناس بالشارع، الكل غمرته الفرحة ويبارك ما جرى، العلم يرفرف حولي ويشعرني بالخفة والتخلص من الجاذبية. في ظل هذا نبت فجأة عسكري مجند من الجيش، هجم الناس عليه، والولد تراجع خوفًا وهلعًا، ربما لم يعلم بعد بما جرى منذ لحظات قليلة، اندفعت أطمئنه وأنا أحتضنه وأخبره بما جرى فَعَلَت الابتسامة وجهه وعدنا للميدان وأنا أشعر بجناحين هائلين قد أنبتهما العلم حول ذراعي المفرودين. لا أبالغ الآن إذا قلت إنه بالكَاد كانت قدمي تمس الأرض.

في الميدان كانت الزغاريد والصواريخ والألعاب النارية قد انطلقت، لا يمكن بأية حال وصف البهجة والفرحة التي كانت تغمر الجميع، ورأيت صديقي جمال فاضل وقد فرد ذراعيه والعلم

حولهما بنفس طريقتي، اندفعت نحوه، واندفع نحوي، كطائرين احتضن كل منا الآخر، قال: أخيرًا. وقلت: أخيرًا. وتهاطل دمعنا تحت سماء العلمين المفرودين فوقنا.

••••••••

كانت ابنتي ندى قد صادرت العلم لصالحها، لكني أخبرتها بأني سوف آتي لها بعلم جديد، بينما هذا العلم، وهو تحديدًا، سأقوم برفعه على السارية الفارغة من علمها بالمدرسة حيث أعمل.

• عن الكهف وغواية الكنز

" هل تعتقد أنهم رأوا أي شيء عن أنفسهم، أو رأي أحدهم الأخر "

أفلاطون

وأزاحني شيخي حتى حافة السؤال، وكان عابسًا ووجهه يحمل تعابير متباينة، كأنما الشيء و ضده، ورمى حجرًا من يده؛ قال: اضرب مثلا لما جرى. كنت أظن أنه في حالته هذه سوف يرتجز بعضًا من حكمه، لكنه قال زاجرًا قبل أن استرسل في خيالاتي: قل ماذا ترى؟ ولما كنت أعرف بعضًا من مراوغاته، صمتُّ. ولم يكن صمتي لينجيني من حبائله أو شراكه التي يمهد لها بإحكام متناه فأقع فيها دون انتباه أو تدبر. صمتي الآن كي أتدبر حدود ما طلب ولا أزيد، ربما مراوغة مني للتنصل من سؤاله، أو لتمديد الوقت كي يفصل ما أراد. قال: فصل ولا تزد.. فقط.. كأنما... وانتظرتُ أن يكمل، فما كان منه إلا أن استوى على صخرة وأغمض عينه، فعرفتُ أنه أنهى كلامه وعليَّ أن أبدأ.

وخطوت خطوة مداريًا بها وجلي وارتباكي، وتمثلت ما جرى في خيالي، فرأيتنا في كهف عميق، جماعات متفرقين، على الرغم من كوننا متداخلين. والكهف يحيط بنا من كل جانب؛ أسواره عالية، منيعة، أو هكذا تبدو. لم نكن نحن بالتأكيد من فكر في اللجوء للكهف، أو بناء أسواره. لكننا، وبإصرار فاضح، شاركنا في تعلية

أحجاره، وجعل السور من الضخامة التي تنوء العصبة أولو القوة بالإطاحة بها، أو حتى التفكير في هدمها، كانت الأسوار هدفها حمايتنا، م؟ الآن أتدبر فلا أدرك أي حماية كنا نقصد، لكن الحماية كانت الطعم البراق، لكنها -الأسوار- دونما ندري حجبت عنا الشمس، النور. ومع الأيام اعتدنا الظلمة حتى صرنا لا ندرك أنها ظلمة، وكأنما صارت الدنيا نحن فقط، نحن المنعزلين، المعزولين، ولا شيء خارج الكهف.

هل للكهف باب؟ تساءلت، فمع الرغبة الضارية في إقامة جدران الكهف المنيعة نسينا أمر الباب، المنفذ، وأقمنا السور كاملا، لا باب ولا مفتاح، فما حاجتنا للمفاتيح إن لم يوجد ما تفتحه؛ الأهم أننا جميعًا شاركنا، كلٌّ بجماعته، وباختلاف القدر وحجم المشاركة، كنا نقيم أسوارًا مزدوجة، السور الخارجي يخص الكهف بعمومه، والثاني سور يحوط بكل جماعة.

كان منّا، نعم للأسف، الآن أتذكر وبوضوح، من صرخ منذ البداية بخطورة الكهف وأسواره علينا، وحاولوا تأليبنا عليه، لكننا، وبالعمى الكامل والملازم للقطيع، أعرضنا عنهم وتركناهم للحراس. حراس! نعم. ألم أقل إنه ومنذ البداية يوجد حراس للكهف، كما

لكل شيء حرس وعسس وعيون بيننا؛ تركنا أولئك النفر للحرس، فغاب منهم من غاب، ولم نعد نراه، أو حتى نهتم بالسؤال عنه وعن مصيره وما الذي جرى له؟ كيف اختفى وغاب بهذا الشكل أو ذاك. لكنّ بعضًا من أولئك النفر لم يغب، أو يختفي، وإنما جرى ترقيته وسط جماعته، فعاد يزين للجماعة فضائل الكهف، ويعدد مزايا الأسوار، وممجدًا في الحراس وأسيادهم، وقد صار هؤلاء قادة، كل لجماعته.

جماعات، كنا نتوالد داخل الكهف، وما نلبث ننضم لواحدة من الجماعات العديدة والمتفرقة بأرجاء الكهف، من أقصى يمينه لأقصى يساره، فقط عندما نجد لأقدامنا مواقع أكثر راحة من غيرها، وتكون فرص الترقي واعدة، كان الانضمام لجماعة ما يهبنا الخدر والغرور بتوهم حماية مزعومة توفرها الجماعة لأفرادها، فما رأينا الجماعة ولا أفرادها يحركون ساكنًا عندما يغيب فرد منها أو من غيرها من الجماعات، من يفترسه مرض، أو تنهشه عجلات الطريق، أو يضيع في ظروف غامضة أو واضحة جلية، هنا يتكفل القادة منا بردنا لواقع الكهف وأمانه، فنتبادل الحقد والكراهية ضد غيرنا من جماعات الكهف، ولا مانع من اتهامهم بأنهم هم وراء سوء أحوال

الكهف وسبب ابتلائنا، فصار من يغرق أو يحرق أو يقتل غيلة لا يعنينا إلا بقدر انتمائه لجماعتنا، وكأن من قُتل أو حرق أو غرق أو دهس أو غيب يخص كهفًا آخر غيرنا. ربما روح العداوة هذه كانت تزداد مع الأيام وتنضج على مهل بين بسمات الحرس وتشجيعهم لنا على إظهار المزيد من العداوة والعنف.

كنا نتزاوج ونتناكح ونتوالد في ظلام الكهف، وفي ظلامه أيضًا كنا نكبر ونهرم ونموت، عفوًا، ولتسامحني يا شيخي على نسياني أنه في أوقات أسمارنا المظلمة بقلب الكهف، كنا نتذكر تلك الحكايات القديمة والغامضة التي ينسبها الكثير للخرافات والأساطير حتى صارت طرفة أو حلمًا بعيدًا، كانت أكثر الحكايات ترديدًا وتكرارًا، والتي تثير في نفوسنا الأسى والشجن، وتجعل عيوننا تلمع ببريق غامض، تلك الحكايات التي تقول بوجود كنز هائل خارج أرض الكهف، ولا ينسى الحكاؤون على التأكيد بأن هذا الكنز يكفي الجميع، تقول الروايات إن مكان الكنز خارج الكهف، وعلى مبعدة منه، ولا يقدر واحد على وصف الكنز والإحاطة بما يحويه. وفصلت بعض الروايات الصعوبات الجمة التي ستواجه الباحث والطامح في الكنز، بداية من زلاقة الأرض والمستنقعات الآسنة التي تنذر

بشر مستطير، نهاية بالوحوش الضارية التي تحول دون الاقتراب من الكنز. واعذرني يا شيخي أن أغلب من غيبوا أو اختفوا كانوا يتحدثون عن الكنز؛ ليس باعتباره حكاية للتسلية، لكن كحقيقة واقعة، وكانوا يدللون كل الحكايا كواقع، والواقع يصير ذات يوم حكاية، لكن قادتنا الأشاوس تصدوا لحملة الأحلام المراوغة تلك وقالوا إنها أساطير الأولين، وذكرونا بالشمس القاسية التي تنتظر الخارج من الكهف لتبيده، وكيف أننا نحن أفلحنا في بناء الكهف للتخلص من شر الشمس. كان كل قائد يواجه جماعته بحكاية مضادة لحكاية الكنز تلك، حكاية تتفق مع مفاهيم جماعته، وكنا يا شيخي نصمت، نتناوم، قليلا أو كثيرًا، لكن حكاية الحلم، الكنز، صارت تطاردنا في أحلامنا يا شيخي، البعض لم يحتمل، فراح يفكر في طريقة للخروج من الكهف. فواجهة الكهف بلا باب وأسوار منيعة وحراس شداد غلاظ وصمتنا المريع.

لكن فتية منا، وقد ضاقت بهم أوضاع الكهف وفساد هوائه وركود الحياة القاحلة بداخله؛ تقدمت نحو جدار الكهف غير عابئة بالجدران الداخلية للجماعة، وكأنما نبتوا خارج تلك الأسوار، راحت للسور الخارجي المهيب وأخذت تدق بكل العنفوان وبكل الغضب،

وعلى الرغم من ضراوة الحراس وشراستهم وحجم الأسوار الخرافي وسقوط من سقط، فإن الإصرار على إنهاء الحياة داخل الكهف بدت واضحة، ولم تعد للقادة المحلين فائدة، فقد داستهم الأقدام التي اندفعت تساعد الفتية حتى انهار الجدار وتراجع الحراس مجللين بالخزي والمهانة، واندفعنا نحو النور الذي عشي عيوننا، وتبينا في ضباب الرؤية أننا لا نعرف بعضنا بعضًا، وتدافع الناس وقد تذكروا حكاية الكنز القديمة، اندفعنا وعشي الضوء يفقدنا البصيرة، فسقطنا في الأوحال وداس بعضنا بعضًا، ونسينا تمامًا، يا شيخي، نسينا الحكمة بالحكاية: إن الكنز يكفي الجميع ويفيض.

• عن السفينة حال جنوحها

"إن السياسة هي قيادة
سفينة في عرض البحر، في خضم عاصفة،
ومع وجود اختلافات جوهرية بين أعضاء الطاقم"

مكيافيللي

كنا في السفينة، والسفينة يضربها الموج من كل جانب، فلا تقر، وهائجة في بحرها المتلاطم، وعلى الرغم من الهلع والفزع الذي يسيطر على قلوبنا وأعصابنا، فإن شيخي كان هادئًا وصامتًا، كانَ يمعن في معاندتي. جريت نحوه أقول: إن السفينة مآلها للغرق. فتبسم زيادة في مناكدتي، في اللحظة مرت بنا طفلة وهي تبكي وتقول: الدم.

فأقامني شيخي على قدمي من انهياري، وقال لي وهو يهزني: تبصر ما جرى.. أعد عليَّ لغة ومثالا، اختصر ولا تزد، وارو عن قلب مفعم بالأمل لا باليأس. ثم أطلقني. قلت: ما أنا براو. وتعجبت لحال شيخي المخالفة لأجواء السفينة المضطربة، يصرعها الموج، ولا شاطئ قريبًا ينبئ عن نجاة محتملة. فأدارني صوب البحر، وهو ينفضني بقوة، قائلا: إن كانت ستغرق بنا السفينة فعلا، هل ما تراه من هلع هو ما سوف ينقذها؟ تبصر من الموج وحركته، واتلُ علَيّ ما رأيت. وعادت الطفلة باكية تصرخ: الدم. فزعق بي الشيخ: ارو. وأنا أنفض كتفي من قبضته: ما أنا براو. وأكملت في نفسي وقلبي يتخلع، وأنا أرى صارية السفينة وقلوعها تميل بعنف منذرة بالكارثة المقبلة: قد خرف شيخي.. ولا مجال لمناقشته.

فقبض على حافة السفينة ومال بجزعه نحو الماء، وغرف بيده وضربني على وجهي، قال: أفق. ما أنت إلا غرٌّ يضلله الهوى. واستدار بوجهه عني، فحرقني الملح في عيني جراء الماء الذي قذفني به، فرحت أدعك عيني كي أخفف الألم، ومن حولي الناس يتدافعون كأننا في يوم

الحشر، وراحت عيني يجلوها الملح، تقدمت نحو شيخي أمد يدي كي يساعدني، فتلقاني ببسمة مشجعة. قال: تبصر وارو.

نظرت للموج الذي يتلاعب بالسفينة، فإذا بي أرى حركته القادمة من الأعماق كشلال متتابع ردني إلى ما كنا عليه، فرأيتنا في السفينة والسفينة جانحة بنا نحو عمق الهاوية، وقبطانها العجوز الذي أنهكته السنون، والذي لم نكن نراه إلا في احتفالات السفينة بأحد أعيادها، بشرط أن يكون هو بطلها، لا يدير الدفة بعيدًا عن الهاوية تاركًا الأمر لمساعديه الذين هم من أقاربه وعائلته، وكأنما صارت السفينة ملكًا لهم، لا يسمعون لنصيحة ولا لصيحة احتجاج منا على مسار السفينة. باختصار.. لم نكن نعني لهم شيئًا، وكان حراس السفينة الشداد الغلاظ ينكلون بمن يجهر بصوته أو رأيه، أو يدعون أولئك الذي يقيمون بالقمرات الخلفية، والذين لا نراهم، ولا يروننا، يتركونهم لينقضوا علينا بين الحين والحين ليثيروا الفزع والهلع داخل نفوسنا الآمنة المطمئنة، ثم يظهر الحراس ويجرجرونهم نحو قمراتهم البعيدة والمحظورة، هكذا يطلقون عليها "المنطقة المحظورة".

هز شيخي رأسه؛ لا أعرف موافقًا أو رافضًا، فقلت موضحًا: الآن أتبصر اللعبة المزدوجة بينهم، الطرفان رابحان؛ الحراس والمحظورة: الحراس بادعائهم أنهم يحموننا من أي خطر يتهددنا، والآخرون يكسبون تعاطفنا من كونهم مبعدين عن سطح السفينة ومحظور عليهم التعامل معنا، على الرغم من أن لهم بعض الأناس بيننا يروجون لهم، ويصورونهم لنا على أنهم يدافعون عن السفينة ضد طغيان القبطان

وحاشيته، وعني أقول -يا شيخي- إن اللعبة كانت مزدوجة علينا، هم الكاسبون طوال الوقت، ونحن المغرر بنا لنصدق تلك الأوهام.

كنا في السفينة يا شيخي، نحلم، نعم نحلم، لنا ولأولادنا وسفينتنا بأن نكون في أحسن حال ونصل إلى البر سالمين، نجاور السفن المتقدمة علينا، كانت لدينا آمال في أن نحاذي تلك السفن الكبيرة والعظيمة التي تسبقنا بمراحل هائلة، أن ننجو من كوننا في مؤخرة ركاب السفن، ومعرضين طوال الوقت للغرق والضياع داخل المحيط الشاسع. ليس هذا وحسب، لكن أيضًا تلك السفن التي تحاول قرصنة سفينتنا وأسماك البحر المفترسة التي تهاجم جوانب السفينة منتهزة أي غفلة حتى تنقض على السفينة. كل هذا يا شيخي، وقبطاننا العجوز صم أذنيه وعينيه عما يتهددنا، وصار همه الوحيد أن يحافظ على وجوده داخل كابينة القيادة الوثيرة الدافئة، ولا عزاء لنا ولسفينتنا.

لحظة يا شيخي، فاتني في الكلام أن أوضح تقسيم السفينة. فإذا كانت القمرات الأمامية الفخمة، والممنوع الاقتراب منها، أو حتى السير بين ردهاتها، تخص القبطان وعائلته وأقاربه، والقمرات الخلفية والمحظورة علينا أيضًا، تحتلها تلك الجماعات التي تدعي التقوى والورع، على الرغم من كراهيتها الشديدة لمجتمع السفينة وللحياة، كنا نحن -عمال السفينة، ومنتجي غذائها، ومغذي دواليبها بالطاقة كي تدور وتتحرك- واقعين بين المقدمة والخلفية وقد ضاقت بنا السبل والأماكن، وأصبحت قدرتنا على الحركة والحرية ضيقه جدًا. يغرق من يغرق ويحرق من يحرق، دون اهتمام من المقدمة أو الخلفية على السواء،

لا صحة، ولا غذاء آمن، ولا أماكن كافية لمبيتنا. فصرنا نتكدس في الطرقات وبين تروس الماكينات، معرضين للحر والعرق والبرد والمرض ونوبات المطر ودوخات البحر.. لكن مهلا يا شيخي؛ هناك مكان آخر. أظنني الآن أتبصر وجوده للأول مرة، على الرغم من كونه خافيًا وغير طافٍ وظاهر على السطح. أقصد أولئك النفر الذين يديرون الأجهزة ويقيمون في الجزء العميق من السفينة، والذين لا نراهم أبدًا، لكننا نعرف قدرتهم غير المحدودة على إدارة أحوال السفينة وتوجيه دفتها، هم أشخاص غامضون، حتى وإن ظهروا بيننا لا يمكن التعرف عليهم، أولئك في غرفهم العميقة المكيفة التي لا يمكن النفاذ إليها يديرون كل شيء على السفينة، ويدركون كل دبة على السفينة، لكن ما لا أقدر الآن على تبينه، فإن كان ارتباطهم بسكان مقدمة السفينة مبررًا وواضحًا، فما مبرر علاقتهم الخفية بسكن خلفية السفينة المحظورين، الذين يدعون -مراوغة لنا- معاداتهم لسكان القمرات الفاخرة.

لم يكن لنا لنسكت طويلا يا شيخي على هذا الوضع ونحن نرى أيامنا تمضي والسفينة بنا نحو الغرق والهلاك المبين، ودعني أقلها إنه لما خرجنا من كل الأماكن الضيقة والدهاليز والردهات المعتمة نهتف بحقنا في الحياة الكريمة الآمنة، لم يكن يدور بخلدنا أننا سوف نسقط القبطان العجوز عن قمرته. كنا في البداية نحلم بتحسين أوضاعنا ووضع السفينة على طريق النجاة، لكننا اكتشفنا كم كنا مخدوعين بتلك الهالات الجهنمية التي كان الحراس يصورونها لنا، بدا القبطان وأقاربه مجرد وهم صنعناه بخوفنا ورغبتنا في الحياة، فصار مآلهم للقمرات

السفلية المظلمة من السفينة، لكننا يا شيخي في فورة فرحنا بالتخلص منهم لم نر ما كان يتم تدبيره تحت عيوننا، كنا ندعي، وقد كسرنا حاجز الخوف، أنه ما من أحد يستطيع الضحك علينا والتغلب علينا وقهرنا مرة أخرى، لكننا بالفرح تراخينا، وبالزهو انتشينا حتى صحونا على المفاجأة القاسية التي كانت من الممكن أن تصيبنا بالإحباط والشلل، رأينا بأم عيوننا أن الساكن الجديد لقمرة القبطان واحد من تلك الجماعة التي تدعى بأنها محظورة. أقول يا شيخي إن اللعبة جرت تحت أعيننا، وبعضنا شارك فيها، فقد تمت الصفقات في القمرات المغلقة، وكان علينا الخيار ما بين السيئ المرفوض أو الجديد الغامض الذي يسوق نفسه في ثياب الطهارة والعفة والورع. باختصار يا شيخي؛ كان الخيار بين واحد من سكان مقدمة السفينة، وواحد من خلفيتها، وقد كان من الأمر ما رأيت وعرفت.

راحت السكرة كما يقول أشياخنا، ورأينا سفينتنا على حال جنوحها وغرقها الوشيك، فقد تقطعت الحبال وتمزق الشراع، وسكان القمرات الأمامية الجدد يسارعون للاستحواذ على السفينة دون أن يقدموا لنا أي بارقة في أمل للنجاة. لم يكن أمامنا سوى الغضب والانتظار وبوادر الدم تفوح في الأجواء جالبة القروش النهمة التي تريد الانقضاض على السفينة منذ زمن وقد أتت فرصتها السانحة، خاصة والسفينة تترنح تحت ضربات الموج وتقصف الصاري وجشع السكان الجدد.

الآن وقد بات واضحًا ما جرى، هل سترهبنا الدماء والحرس المتربص والقروش المهاجمة وسفن القرصنة، علينا فقط أن نتوحد ونقول كلمتنا

عالية، لن نسمح للغرق أن يكتسحنا قبل أن نقول كلمتنا وسنجبر أولئك الرجال الذين يديرون السفينة والحرس على أن يصححوا خطأ ما ذهبوا إليه وعقدوا الصفقات عليه، فأن تغرق السفينة، فسيغرق كل من عليها وهم أول الغارقين.

لم يعد مكان للاختباء أو التراجع. الكل وقد خرج يهدر بعلو الصوت والجوارح: لن تكون نهايتنا في هذا المحيط الآسن من التآمر والفشل؛ سنحقق ما نحلم به في الغد لنا ولأولادنا ولسفيتنا. وكان على الجميع -بما فيهم الحرس- أن ينحازوا لحال السفينة ونجاتها كي تتقدم بنا نحو شاطئ أحلامنا.

المحتوى

شركة الأمل للطباعة والنشر
(مورافيتلى سابقًا)
ت: 23904096 - 23952496



سكين حادة سريعة النصل راحت تمزق اللوحة البلاستيكية المطبوع عليها وجه الرئيس وبجواره العلم، فى غمرة الفرحة العارمة تنبهت الجموع للعلم، فهتفت فى نفس واحد: سيبوا العلم.. سيبوا العلم.

أيّ وعى تفتق فى هذه اللحظة، جعل الجميع مع رغبتهم الضارية فى تمزيق وجه الزعيم ألا تمس أنبل ما فى اللوحة: العلم. وكأنها بفعلها هذا تستعيد القيمة والمكانة المهدرة لهذا الرمز، تعيد له كرامته التى تم التعدى عليها طوال سنوات طوال، حتى بات وكأنه قد تبخر من حياتنا إلا قليلا.



وزارة الثقافة
الهيئة العامة لقصور الثقافة
www.gocp.gov.eg

الثمن: جنيهان